270

HARLEQUIN

روايات أحلام

قلب في امرأتين

مارغريت واي وباربرا هاناي

www.elromancia.com
مرمورية

قلب في امرأتين

وجدت جنڤييڤ نفسها تمشي كالمسحورة في الكنيسة القديمة . متأبطة ذراع بلين الشخص الذي أحبته منذ الطفولة ولكنها لن تكون زوجة بلين بل هو من سيوصلها إلى عريسها .

بدا كل شيء كالكابوس .. تنفست وتنفست ولكنها لم تستطع أن تتنشق ما يكفي من الهواء .. وكان آخر ما سمعته صوت بلين وهو ينطق باسمها .

لولم يغم على جنڤييڤ في تلك اللحظة لخطفها بلين بعيداً مواجهاً غضب الدنيا بأسرها .

... إذاً فلم أقدمت جنڤييڤ على الزواج بمن لا تحب ، ولماذا بلين هو من دفع نفقات هذا العرس كله ؟

عندما بدأت اللايدي شارلوت العمل في مزرعة ، مات لوكهارت ، لم تتوقع أن تقع أسيرة هذا الرجل وأن تتيه بسببه خفقات قلبها . ولكن والدها سبق أن رتب لها زواجاً مناسباً للأيدي .. فأصبحت هي حائرة بين الواجب والحب .

لبنان ،	2500 ل.ل	البحرين ،	1 دينار
سوريا ،	75 ل.س.	السعودية ،	10 ريال
الأردن ،	1.5 دينار	مصر ،	8 جنيه
الكويت ،	750 فلس	المغرب ،	15 درهم
الإمارات ،	10 دراهم	تونس ،	2 دينار
قطر ،	10 ريال	عمان ،	1 ريال

ISBN 9953-15-107-5

مارغريت واي

إنها أسطورة في عالم الروايات العاطفية وقرّائها. تنشر لها روايات منذ ٣٠ سنة. عرفت بشخصياتها الشغوفة القوية ووصفها الوجداني المعبّر لطبيعة أستراليا.

ولدت مارغريت وترعرعت في مدينة بريسبين القائمة على ضفاف نهر، وهي تقيم الآن على مقربة من مدينة «موريتون بي» في مقاطعة «كوينزلند». تعشق هذه الكاتبة وصف بلادها وصفاً حيّاً للقرّاء.

قبل أن تتصرف للكتابة كانت مارغريت تحترف العزف على آلة البيانو وتعطي دروساً في العزف والغناء وترافق كبار المؤلفين والمغنّين. وهي تعزف حتى الآن بشكل جدّي. إلى ذلك فهي تهوى جمع التحف والأعمال الفنية والعناية بحديقتها.

باربرا هاناي

ولدت في سيدني ونشأت في «بريسبين». أمضت معظم أيام شبابها في شمال كوينزلند، حيث ربّت مع زوجها أولادهما الأربعة. كانت تستمتع بأوقات تمارس فيها رياضة التجديف وإقامة المخيمات في الغابات وتعشق أيضاً الحياة العصرية في المدينة والموسيقى الحالمة والرقصات الرائجة والأفلام السينمائية وتناول العشاء في المطاعم.

عملت باربرا كمدرّسة وأحبت الكتابة وهي الآن تحقق حلمها بتأليف الروايات العاطفية ونشرها.

١ ـ عشيّة الزفاف

وقفت جنفييف خارج غرفة أمها تستجمع شجاعتها لهذه المواجهة، واثقةً من أن أنجيل ستذرف دموعاً غزيرة، إذ لا أحد يضاهي براعتها في إزعاج الآخرين، فهي تبكي متى يحلو لها وتسكت متى شاءت.

ولم تعرف جنفييف إذا كانت ستتمكن من احتمال ذلك، لا سيّما الآن وهي مرهقة بسبب تحضيرات حفلة زفافها التي تقترب. كانت قد أصبحت هزيلة جداً ومرهقة لكنها مضطرة إلى الابتسام مما يشعرها بالضيق.

وإذ أوشكت أن تقرع الباب، تذكرت فجأة أن انجيل ستخرج الليلة مع «توبي سلوكومب» لتناول العشاء فشعرت بارتياح بالغ. كان «توبي» من المعروفين في «سيدني تاون»، وقد طلق حديثاً زوجته البالغة من العمر ثلاثين عاماً. وللمرة الأولى لم يكن لانجيل علاقة بذلك حيث أنها خرجت لتوها من تجربة مقلقة. لذا لن تفسد الدموع الليلة كحل عينيها أو تلطخ وجهها البهيج الصغير إلاّ أن الأمسية لن تمر بدون صيحة خفيفة وبعض المحاولات المعتادة للاستخفاف بما تقوله جنفييف. ولكن لا بأس، فلا أحد في البيت سوى «إيمي» المربية التي بقيت مدة طويلة مدبرة منزلهم الأمينة والتي كانت، بالنسبة إلى جنفييف، أماً أكثر من أنجيل المشغولة دوماً بجمالها وباللقاءات الاجتماعية.

راحت جنفييف تفكر أنه يفترض بهذا اليوم أن يكون أسعد أيام حياتها، وقد حاولت تجنب الشعور بالأسى على نفسها. أحست في الواقع

www.elromancia.com

بالعزلة وبالذنب لتفكيرها في الهرب، إلى حد جعلها تصلي، داعية الله أن يساعدها في اجتياز هذه المحنة.

طرقت باب أمها، والماسة الكبيرة تتألق في إصبع يدها اليسرى. فجاءها صوت أمها: «أدخل».

ولم تعرف جنڤييف إن كان عليها أن تبكي أم تضحك وهي تفتح الباب لترى أمها بثوب سهرة طويل لا بد أنه كلفها ثروة.

قالت حائرة أمام مظهر أمها الفتي وتألقها: «رباه، يا أمي الحلوة».

فتحت أنجيل ذراعيها وهي تستدير نحو ابنتها تسألها: «هل أعجبك الثوب؟».

فأجابت هذه ببطء: «آه، نعم. إنه رائع، بل غير عادي».

ـ كنت لأعيرك إياه لولا أنك طويلة جداً.

ـ أنا لست طويلة جداً. على أيّ حال، لم يسبق لك أن أعرتني شيئاً على الإطلاق.

تعطّرت انجيل وقالت: «يا حبيبتي جنڤييف، لم يسبق لك أن احتجت شيئاً. أنا أعرف أنك رائعة الجمال، لكنني، في سنك، كنت أفوقك جمالاً. أنت طويلة وسمراء كأبيك المسكين».

وأخذت أنجيل تتأمل بشرتها البيضاء الوردية.

فأجابتها جنڤييف ببساطة: «معظم الناس يقولون إن بشرتي رائعة».

ولم يبدُ في لهجتها أي استياء، فقد اعتادت على استخفاف أمها بها وتابعت تقول: «بشرتي، بخلاف بشرتك، تتقبل سمرة الشمس وهذا يتلاءم جيداً مع شعري».

ـ بل شعرنا.

صححت انجيل كلامها وهي تمس خصلات شعرها الكثيفة ذات اللون الأشقر الطبيعي الباهت إلى حد البياض. كانت أنجيل في منتصف الأربعينات من عمرها وهو سر لم تكن لتكشفه حتى لطبيبها. وكانت تقص شعرها وتسرحه بعيداً عن وجهها الفتي الرائع الجمال، بينما تركت

جنڤييف شعرها طويلاً مسدلاً على كتفيها.

كانت الاثنتان متشابهتين جداً، على الرغم من أن جنڤييف فارعة الطول بالنسبة إلى أمها. وكان معظم الناس يرون أن جنڤييف أجمل من أمها. وبما أنها من أسرة «كورتلاند»، يفترض بها أن تتحلى بالذكاء، الذي تفتقر إليه أمها. لكن هذا لا يعني أنه يؤثر على نجاح أنجيل مع الرجال، بل على العكس، لعل هذا ما يساعدها على ذلك.

ـ أتعلمين ما تفعلينه يا جنڤييف؟

طرحت الأم سؤالها هذا بحدة على ابنتها المستغرقة في تأملاتها، فسألتها هذه: «لا، ما الذي أفعله؟»

ـ أنت تعبثين بتلك القطعة الخزفية الثمينة وتكادين توقعينها. ضعيها من يدك، أرجوك؟

ـ آسفة، يا ماما.

ـ يا عزيزتي، ألم أطلب منك ألا تناديني هكذا؟

ضحكت جنڤييف، محاولة تغطية الإحباط الذي تشعر به دوماً: «أنت سيدة قاسية، يا أنجيل. أتعرفين هذا؟ طلبت مني ألا أناديك (ماما) قبل أن أتم العاشرة من عمري، وقبل أن يمر وقت طويل على موت أبي».

ولطالما اعتبرت جنڤييف ذلك قسوة فعدم تمكنها من مناداة أمها بـ (ماما) أو (مامي) لم يكن مؤلماً وحسب، بل أثر، بشكل ما، على علاقتهما. راحت أمها تتأوه، وهي تفعل ذلك دوماً عند ذكر زوجها الأول الراحل، والد جنڤييف «ستيفن كورتلاند»، الذي طلقته عندما كانت جنڤييف في السابعة من عمرها، والذي قتل بعد ذلك بثمانية عشر شهراً في حادث مأساوي أثناء الصيد في «جوبيلي». بنى آل «كوينزلاند» قلعة الصحراء ومنزل الأسلاف وهم يسيطرون على مملكة مواشي تحتل قسماً ضخماً من ولاية «كوينزلاند» الشاسعة. وكان بلين كورتلاند، ابن عم جنڤييف الوسيم، الوصي على هذه الأملاك.

إنه رجل محترم للغاية في الحادية والثلاثين من العمر، ينضح وسامة

www.elromancia.com

وحيوية، ولطالما اعتبرته جنفييف بطلاً في طفولتها وبداية مراهقتها. تفصل بينهما ثمانية أعوام كاملة، لكنهما مختلفان جداً من حيث النضج والصلابة.

كان بلين يلاطفها دوماً ويطلق عليها ألقاب التدليل كالزهرة، والبنفسجة نظراً للون عينيها، والطفلة البريئة، والصديقة الصغيرة حتى (بقطينة) أيضاً... وهي أسماء تتذكرها جنفييف دوماً، ولكن بين ليلة وضحاها، تحوّلت إلى تلك المعنوهة الحمقاء المستعدة لإفساد ذكائها بالتشبه بأمها الحمقاء ومنافستها. ولم يكن بلين يطيق أنجيل، ويسميها (النحس) في وجهها. ذلك أن أسرة ستيفن كورتلاند تعتقد أن (الحادث) الذي قتله لم يكن حادثاً على الإطلاق، فالكل يعلم أنه انهار عندما تركته أنجيل، مصطحبة معها ابنته الوحيدة التي يحبها حباً جماً.

سألتها جنفييف وهي تلملم شجاعتها: «أنجيل، هل يمكنني أن أتحدث إليك؟»

ـ ليس لدي وقت للحديث الآن، يا حبيبتي.

ردّت انجيل وهي تتناول حقيبة السهرة البديعة الشكل لتضع فيها منديلاً مطرزاً، رقيقاً.

ـ أليس من الأفضل أن تنامي الآن؟ لأن غداً سيكون يوماً رائعاً. أنا فخورة جداً بزواجك من كولين.

تراءت صورة بلين في مخيلة جنفييف بقوة مخرقة بحيث لسعت رأسها، فقالت فجأة: «أظنني سأترك كولين».

ـ ماذا؟

واتسعت عينا انجيل البنفسجيتان.

ـ لا يمكنني إتمام هذا الزواج يا ما... أنجيل. أشعر أنه فظيع للغاية. أعلم أنك تريدين هذا، وأنك بذلت كل ما في وسعك لإتمامه. لكنني لا أحب كولين، ولم أحبه يوماً، وكنت سأتزوجه فقط لأغيظ بلين.

تهالكت انجيل على كرسي كبير وقد شحب وجهها الصغير، وقالت

نائحة: «ما أسمعه غير معقول... هذا غير ممكن. ثم ما دخل بلين في هذا؟ لا أظنك تعتقدين أن هذا سيسره، فقد دفع النفقات كلها».

ـ دفع ماذا؟

هتفت تسألها واليأس والإذلال يكادان يقتلانها لشعورها بأنها خدعت. وأجابت انجيل ساخرة: «آه، لا تتظاهري بالغباء فهذا لا ينجح معي. لم تعتقدي طبعاً أنني سأنفق مبلغاً ضخماً كهذا؟ أسرة كورتلاند تملك جبلاً من المال، وبإمكان بلين أن يقيم عرساً لثلاثمئة شخص، وهذا لا يتجاوز قطرة في بحره. لكنه يترك تأثيراً عميقاً على حسابي المصرفي».

فكادت الفتاة تصرخ ألماً: «يا إلهي تركتني أعتقد أنك تتولين كل هذه الأمور يا أمي. نعم، أمي. أنت أمي أليس كذلك؟ أبي، رحمه الله، تركك غنية. كان يحبك، ذلك المسكين، يحبني. لا بد أن لديك مالاً كثيراً يا أمي. أنظري في أنحاء غرفة النوم هذه، هذا المنزل الشبيه بالقصر. أنظري إلى ذلك الثوب الذي ترتدينه، والماس في أذنيك وحول عنقك».

ـ هل لك أن تكفي عن إحداث هذه الفوضى والانفعالات؟ عليّ أن أهتم بنفسي، يا جنفييف، ما زال أمامي سنين كثيرة أعيشها.

فصرخت جنفييف: «ظننتك تسعين إلى الزواج من «تويي سلوكومب»؟

أجابتها أمها ثائرة بعنف: «إياك أن تجرؤي على الصراخ في وجهي أيتها الجاحدة. كيف يمكنك أن تخذليني أمام الناس؟ وتخذلي كولين؟ لا أجرؤ على التفكير في ما قد يحدث».

فهزت جنفييف رأسها بعنف وألم: «لا، بل لأنك تتوقعين مني أن أمدك بالمال عندما أضع يدي على مال «غاريت». أنت تعلمين أن الكل يكره والد كولين».

فقالت انجيل غاضبة: «أنا أعلم أنه راضٍ عنك. لقد ابتهج عندما علم أن كولين وجد أخيراً من تستطيع التأثير عليه».

ـ لقد كنا جميعاً دمى بين يديك، ربما جعلت بعض الناس يظنون أنك

www.elromancia.com

فارغة الرأس، لكنك دوماً تحصلين على ما تريدين، أليس كذلك يا أمي؟

فاحمّر وجه المرأة: «لا أدري ماذا حدث لك، يا جنفييف، لقد تغيّرت منذ عودتك من «جوبيلي». إنه بلين طبعاً. إنه مهذب على الدوام، لكنني أعرف أنه يكرهني. كلهم يكرهونني، يلومونني من أجل ستيفن. يا لها من أسرة مقززة، ومغرورة! المزرعة ممتازة، ومع ذلك هربت والدة بلين. مسكينة «كريستيل»! لا تدعيه يستغلك، إن بلين يكره النساء».

أزاحت جنفييف شعرها عن وجهها: «لكنه في منتهى الرقة واللطف معي».

فقالت الأم هازئة، شاعرة بالغيرة لتأثير بلين على ابنتها:

ـ تعنين عندما كنت طفلة صغيرة.

ـ عندما كنت طفلة من دون أب، أحببت بلين من كل قلبي.

اعترفت جنفييف بهذا، خائفة، من عمق مشاعرها هذه. فضحكت انجيل بخشونة: «لقد أصبح كل هذا طي النسيان الآن. مضت سنوات كانت علاقتكما فيها صعبة للغاية. يا لغطرسة هذا الرجل! كان يتدخل على الدوام، وكأنه الوصي عليك، وليس أنا. تذكري عندما أردتك مرة أن تكوني عارضة أزياء، وكان بإمكانك أن تبلغي القمة في ذلك. كان كل شيء ملائماً لك، ولكن بلين أصر على أن تذهبي إلى الجامعة».

ـ كنت لا أزال تلميذة، يا انجيل. ولم أشأ أن أصبح عارضة أزياء.

ـ إنها أحسن مهنة يمكن لفتاة جميلة أن تحصل عليها، فتعيش مثل تلك الحياة المثيرة المتألقة.

ـ هذا ما تظنينه أنت، لكنها لم تكن تناسبني.

ـ وهل العمل في معرض الفنون أفضل!

ـ لدي شهادة ممتازة في الفنون. وأنا فنانة جيدة أتعلم طوال الوقت، كما أنهم يقدرونني تماماً. ولكن لم يعد لذلك أي أهمية الآن، يا انجيل. لا أستطيع إتمام هذا الزواج؟

صعقت أنجيل، وانفجرت تضحك بهستيريا ثم صرخت عالياً:

«محال أن تتهربي من هذا الزواج، فبلين سيجرك على أرض الكنيسة إذا اقتضى الأمر. لا تنسي أن شرف أسرة كورتلاند على المحك».

فالتهبت عينا جنفييف: «أنا مجرد نسيبة بعيدة يا انجيل، ولا اعتبار لي في العائلة».

ـ لا تكوني واثقة من ذلك إلى هذا الحد يا فتاتي، فهذا خرق شنيع لتقاليد المجتمع.

ـ لكن خضوعي لهذا الزواج سيكون أفظع غلطة في حياتي. إسمعيني، أرجوك يا انجيل، أنا أشعر بالوحدة والتعاسة تتآكلاني.

قالت هذا بيأس بالغ، لكن غضب أمها ازداد فصرخت بها: «لماذا الآن؟ لماذا لم تدعي الأمر حتى صباح الغد لتهربي من نافذة الحمام. أنت خائفة، كل العرائس تخاف. لدي مفاجأة صغيرة لك، يا عزيزتي وهي أنه لا يمكنك أن تخذلي أياً منا، لأنك عاطفية ضعيفة مثل أبيك».

عند ذلك التهبت عينا الفتاة: «تباً لك يا ماما، تباً لك لأنك تركت أبي منذ البداية، ألا يكفي أنه ميت حتى تأتي الآن وتفتري عليه؟».

ـ مهلك لحظة، أنا لا أفتري على أحد، أنا أقول الحقيقة. أنت ابتدأت بشيء وعليك أن تنهيه. عليك أن تمضي في هذا الزواج. جميع الفتيات يتهافتن على كولين غاريت، فهو جذاب وغني، أو سيكون كذلك. إنه من أكثر الرجال أناقة. وهو مثالي، ودوماً يقول: «إنجيلينا... يا جميلتي...».

فقالت جنفييف غاضبة: «لماذا لا تقولين له أن يخرس، ولن تكون أمه تعيسة لذلك. أنا أعلم في أعماقي أنها لا تظننا متلائمين، ولعلها تخاف أن أهجر ابنها في المستقبل كما هجرت أنت أبي».

وارتجف صوتها، فألقت انجيل برأسها إلى الخلف تحدق في السقف: «أنا لم أهجر أباك يا جنفييف، بل رحلت عن البيت ليس إلا. فأنا لم أقابل في حياتي رجلاً متطلباً إلى هذا الحد. وجدت حبه وإلحاحه على الحياة الأسرية خانقاً... يا إلهي، كم هذا كئيب وموحش!».

ووقفت انجيل مشمئزة ثم تابعت تقول: «لقد كدرتني يا جنفييف. أنا أفهم أنك متوترة، وهذا أمر طبيعي. لكنني أنصحك بشرب كوب من الحليب الساخن والخلود إلى النوم، وعندما تستيقظين في الصباح ستشعرين بتحسن كبير».

واستدارت تواجه ابنتها التي بدت الآن، بشكل ما، وكأنها في الرابعة عشرة من عمرها.

ـ والآن، لا بد أن توبي على وشك الوصول. لا أريد أن أسمع المزيد عن هذا، فأنا لا أستطيع معالجة الأمر. لا أدري لماذا لا تطيقين فكرة أن يدفع بلين كل النفقات.

فرفعت الفتاة رأسها: «هذا لأنك طفيلية، يا ماما، وأنت ماهرة في ذلك. لكنني سأمسك هذا عليك إلى الأبد».

ـ أحقاً؟

وانفجرت انجيل تقول بصوت منحشرج:

ـ كيف تجرؤين على مخاطبتي بهذا الشكل، أيتها المنافقة المتظاهرة بالصلاح؟ لقد عملت مع بلين لسنوات. وبطلك ذاك، معقد الشخصية جداً. فمع أنه لم يكن راضياً عن أي من الأعمال التي قمت بها أثناء السنوات الأخيرة، إلا أنه كان أكثر من سعيد عندما دفع فواتيرك. آه، نعم يا عزيزتي، لا تذهلي بهذا الشكل. رغم أن هذا أعمق سر لديّ، لكن الواقع أن بلين ساعدنا كثيراً. ولماذا لا؟ كان يراك طفلة كبيرة، والمعروف عنه أنه صعب الإرضاء، ثم، أنت قريبته، وهذا شيء هام في صالحك.

شعرت جنفييف بيد تعتصر قلبها.

ـ هل طلبت أنت منه ذلك؟

وبدا المرح على الأم بشكل لا يصدق: «أبداً. لقد فعل ذلك من تلقاء نفسه. كنت طفلة بريئة حلوة خلابة، حسب قوله. لكنني أتوقع أن يسرّ عندما يحمل شخص آخر العبء عنه».

احمرت بشرة جنفييف الذهبية ورفعت نظرها. كانت عيناها بظلمة

المحيط، واعية إلى شيء لم تلحظه في حياتها من قبل، وهو حقد غريب في نفس أمها. وقالت متوسلة:

ـ لا تقولي المزيد، يا أنجيل.

ثم وقفت بدورها منتصبة القامة، قبل أن تضيف: «بعد غد قد لا نرى بعضنا البعض مرة أخرى».

سمعت انجيل نذير النهاية في صوت ابنتها، فاندفعت تقول: «آه، يا عزيزتي، ما هذا الكلام الغبي الذي تقولينه؟ أنا أحبك يا جنفييف، وأنا فخورة بك جداً».

واندفعت إلى الأمام تربت على خدي ابنتها، متسائلة في قرارة نفسها، عما يجعلها، وهي الجميلة للغاية، تشعر بالغيرة من شعر ابنتها وفمها وعينيها وأسنانها الجميلة وابتسامتها المشرقة التي لم تعد تراها كثيراً هذه الأيام. وتابعت تقول: «آخر ما أريده في هذا العالم هو أن أراك تعيسة، يا جنفييف».

وأضافت وهي ترتجف، مستعدة لذرف الدموع: «ثقي بي، يا عزيزتي، فأنت تعانين من توتر في الأعصاب وهذا الأمر طبيعي وليس كارثة. كولين رجل دمث حسن المعشر، ومرح، وسيكون لديه مال كثير. لقد بقيت مسؤولة عنك مدة طويلة، وهذا يجعلك تشعرين ببعض المسؤولية نحوي بالمقابل. أنا أعلم أنك ستجعلينا جميعاً فخورين للغاية غداً. إنه حلمي، يا حبيبتي».

* * *

بعد أن غادرت أنجيل المنزل، متشبثة بذراع توبي سلوكومب ضاحكة، بحثت جنفييف عن إيمي، فوجدتها جالسة أمام التلفزيون في الغرفة الصغيرة بجانب المكتبة تشاهد فيلماً قديماً.

ـ مرحباً، يا عزيزتي.

ورفعت إيمي بصرها فتلاشت ابتسامتها وهي ترى العذاب البادي على وجه جنفييف.

www.elromancia.com

ـ هل ستتفرجين معي على هذا الفيلم؟

فابتسمت رغماً عنها: «يا الهي، يا إيمي، لا بد أنك شاهدت هذا الفيلم مئة مرة».

ـ إنه أفضل من الأفلام الحديثة. ألم يكن البطل أوسم الرجال؟

ـ هذا مؤكد، لكنني سمعت أنه كان أحدب.

ـ إنها مجرد أقاويل، فقد كان رجلاً حقيقياً. على أيّ حال، ماذا حدث لك؟ يبدو كأنك بحاجة إلى شراب مهدىء بينما يفترض بك أن تكوني سعيدة للغاية.

جلست جنڤييڤ، وشبكت يديها.

ـ هذا هو الأمر يا إيمي. أنا لست سعيدة.

ساد صمت قالت ايمي بعده: «كنت أتساءل متى ستدركين ذلك».

وأطفأت التلفزيون ثم سألتها: «أتريدين أن تتحدثي عن ذلك؟».

ـ حاولت أن أتحدث عن ذلك مع أنجيل لتوي.

ـ أظن أن هذا لم يأت بنتيجة. من العار أن تضغط أمك عليك بهذا الشكل لتتزوجي من كولين.

هزت جنڤييڤ رأسها: «لا تلومي أنجيل. الذنب ذنبي. ما هو رأيك بصراحة في كولين؟».

ـ أنا مع بلين.

ودت لو تضيف أنها ترى أن كولين غاريت لا يستحق عزيزتها جنڤييڤ بأي شكل. فمثل هذه الفتاة الطيبة، الجميلة، لم تسبب إزعاجاً لأحد يوماً. ولولا حبها لها لانتقلت إلى وظيفة أخرى منذ زمن طويل. وهمست جنڤييڤ والدموع في عينيها:

ـ إنسي بلين. فقد كان فظيعاً معي.

ـ لكننا لا نستطيع أن ننسى بلين يا دميتي. هيا اعترفي بذلك. سواء أحببته، أم كرهته، فهو دوماً موجود لأجلك. ومع ذلك أشعر وكأنكما ما زلتما تحاولان أن تعرفا ما الذي يعنيه أحدكما للآخر.

تنفست جنڤييڤ بعمق، وقالت: «إنه طاغية متسلط لا يرحم. أخبرتني انجيل لتوها أنه دفع نفقات العرس كلها، بدءاً بثوب العرس وملابس وصيفات العروس، والأزهار، وصولاً إلى أجر المصورين والكنيسة والأطعمة والشراب وكل شيء».

وأدارت عينيها البنفسجيتين إلى إيمي التي كانت تعلم أكثر منها بكثير.

ـ وهل كدرك هذا؟

وكادت جنڤييڤ تصرخ وهي تقول: «كدرني؟ لقد حطمني. أتساءل عما يمكن أن تفعله أمي أسوأ من هذا. أظنه دفع نفقات كل شيء لسنوات».

وعضت على شفتها بقوة، مدركة أنها على وشك البكاء. فقالت إيمي برفق: «بلين يهتم لأمرك حقاً، يا جنڤييڤ. ربما يقصر معك، من وقت لآخر، لكنه يحفظ دوماً كل ما يهمك، عن ظهر قلب».

فقالت بصوت يرتجف: «هذا ما يخيفني».

ـ لماذا يا حبيبتي؟

ومالت إيمي إلى الأمام والاهتمام بادٍ على وجهها، فأمسكت جنڤييڤ برأسها وأجابت:

ـ إنه يسبب لي الجنون، إنه رجل يثير الغضب والجنون، كما أن لديه ميلاً إلى القسوة.

فقالت إيمي وهي تهز رأسها:

ـ لا. لا أوافقك الرأي.

ـ أنت تدافعين عنه دوماً، يا إيمي.

ـ لأنه رجل رائع. لقد عشت معكما مدة طويلة يا جنڤييڤ. وأنا أعرف كم تصرف معك بلين بطيبة.

تأوهت جنڤييڤ بتعاسة. كانت تريد بلين إلى حد يجعلها تنهار من التوتر.

www.elromancia.com

ـ ولماذا تحوّل ضدي إذن، يا إيمي؟

ـ لماذا لا تسألينه؟

ـ يا لها من مزحة، إنه يخيفني، كما تعلمين جيداً.

ـ حدث خطأ جسيم أثناء لعبة البولو في تلك العطلة الاسبوعية.

أجابت إيمي بذلك وهي تومىء برأسها بينما ارتجفت جنفييف للذكرى: «بالضبط... آه، يا إلهي يا إيمي».

وأغرقتها المشاعر: «كان بلين مرأ لاذعاً حين أخبرته أنني سأتزوج كولين. ظنني غير جادة، ثم تملكه الغضب... والتهبت عيناه، قال لي إننا لن نكون سعيدين أبداً. عاملني بقسوة بالغة فظننته سيضربني، لكنه بدلاً من ذلك، نظر إلي بعينين دامعتين وكان هذا أسوأ».

نظرت إيمي إلى جنفييف وهي تمسك بخديها: «ماذا؟».

ـ أما كنت تصغين إلي، يا إيمي؟ أقصد أنه أربكني بنظراته بل هزّ كياني، وظننت أنني سأموت.

ـ يا إلهي!

ـ لقد فعل ذلك بطريقة دمرت حياتي وبدون أي مبرر.

ـ وكيف ذلك، يا عزيزتي؟

طرحت إيمي سؤالها بحنان بالغ، فبادلتها جنفييف النظر مجفلة: «كوني واقعية، يا ايمي، كيف يمكن أن أتزوج كولين بينما لا أعرف مشاعر بلين نحوي؟ أنا خائفة من بلين».

ـ هل وصل الأمر إلى هذا الحد؟

نظرت إليها ايمي بشغف وتفهم، فردّت: «لقد قلب حياتي رأساً على عقب، يا ايمي. ربما لم يقصد ذلك، لكنه فعل. كنت راضية بالأمر الواقع تماماً. إنما الآن! لقد أصابني بما يشبه السهم، وهذا غريب فهو أيضاً يستعد للزواج».

فسألتها إيمي وهي تغلق علبة الشوكولا: «أظنك تعنين «سالي فينويك»».

ـ طبعاً أعني سالي. إنها جميلة ورقيقة، وهما صديقان منذ زمن بعيد. ستحضر سالي العرس، وقد نزلت في الفندق نفسه الذي نزل هو فيه. حتى إن «هيلاري» أخته تحبها وهي راضية عنها وتقول إن الزواج لم يعد بعيداً الآن.

ـ أحقاً؟ كنت أظنها علاقة من جانب واحد.

ـ هذا لأن بلين لا يكشف عما في نفسه.

ـ وبما تفسرين غضبه منك؟.

فاحمر وجه الفتاة: «كل ما يفعله بلين هو بهذا الشكل، أليس كذلك؟ إنه لا يدرك أنه...».

فأكملت إيمي لها الكلمة المناسبة: «أنه قوي التأثير».

فقالت جنفييف بصوت منخفض: «رباه، كم أكرهه!».

ـ لماذا لا تخبرينه؟

فهمست جنفييف: «لقد فعلت. قلت له إنني أريده أن يخرج من حياتي، أخبرته أنني سئمت من طرقه الاستبدادية، فأنا لم أقم طوال سنوات بعمل يرضيه».

ـ لماذا لا تخبرينه مجدداً؟ فقد تنجحين هذه المرة.

فكرت جنفييف قليلاً ثم هزت رأسها: «لن أراه قبل يوم الزفاف».

ـ أخبريه الليلة إذن. ما الخطأ في هذا؟

ـ أتعنين أن أذهب إلى فندقه؟

فأومأت إيمي: «لو كنت مكانك، لما انتظرت لحظة».

ـ ماذا تقولين يا إيمي، يا حبيبتي؟

ـ ما كان ينبغي أن أقوله من قبل. أخبري بلين ما حاولت أن تخبري به أمك، وهو أنك لا تستطيعين المضي في هذا الزواج.

انتصبت جنفييف ونظرت إلى صديقتها بحذر: «ستفقده الصدمة صوابه».

ـ أتخيل ذلك.

www.elromancia.com

ـ لا أحد في أسرة كورتلاند يقوم بعمل كهذا.

ـ هذا أفضل من أن يقدم على غلطة فظيعة.

ومالت ايمي لتمسك بذراع جنفييف، ثم تابعت تقول:

ـ بلين رجل استثنائي. أفصحي له عمّا في قلبك، ودعي الباقي له.

فقالت بذعر: «لا أدري إن كنت سأجرؤ. هذا فظيع. المنزل جاهز، والكنيسة جاهزة. ملابسنا معلقة في الخزانة، وقد كلفت ثروة. ثلاثمئة مدعو قادمون. الهدايا كلها هنا. ولا أدري إن كان لدي الشجاعة الكافية. ولا أظن أن بإمكاني أن أذل كولين وأسرته. قد يعيدني أبوه بشاحنة من عنده، فهو ملك الشحن على كل حال».

ـ اسمعي. أرغمك على هذا الزواج والده من ناحية، وأمك، رغم انكارها، من ناحية أخرى. خطبة لشهرين فقط هي غير كافية، فأنت لم تحصلي على وقت كافٍ للتأكد من مشاعرك. وواضح أن بلين غيّر كل ذلك.

فبدا الاضطراب البالغ على جنفييف.

ـ شعرت بشيء لم أشعر به قط من قبل، وهو أن بلين قد تملكني قلباً وقالباً وأنه كان ينتظرني لأكبر. لقد أنهى في لحظة واحدة علاقتنا القديمة. رباه، كنت أعتبر أننا مجرد أقرباء، ولكن الأمر لم يكن كذلك في أعماقي. أنا لا أنكر أنني لطالما اعتبرته أروع رجل في العالم. لكنني كنت أظنه يراني (البنفسجة الصغيرة) ويدللني كطفلة، أتذكرين؟

ـ آه، أنا أذكر كل شيء. كان بلين ماهراً جداً في اختيار الكلمات. ورغم شخصيته القيادية، والمرهبة أحياناً، كانت فيه ناحية رقيقة. يمكنه أن يكون حنوناً جداً معك، فاذهبي إليه وافصحي له عما يعتمل في قلبك. يتملكني شعور بأنه سيفعل أي شيء لأجلك إذا طلبت منه ذلك. لا، لا تنظري اليّ بهذا الشكل، فهذا صحيح.

فقالت جنفييف بحزن: «هذا ليس سهلاً يا إيمي. أظن أن بلين يريد أن يكون انفصالنا أبدياً».

وقع نظر هيلاري كورتلاند على جنفييف لحظة دخلت الفندق، ومجرد رؤيتها بعثت الارتياب في نفس هيلاري التي كانت تستمتع بوقتها. كانت جنفييف تسير بسرعة ورشاقة لكن هيلاري رأت خلف تلك الحيوية الظاهرة تعاسة عميقة في نفس جنفييف أو لعله انزعاج؟ بدا لها أن جنفييف تبحث عن شخص ما. ومن عساه يكون سوى بلين؟

سألها صديقها الشاب باهتمام بالغ:

ـ أنظري. أليست تلك نسيبتك؟

ـ نعم، إنها جنفييف.

أجابته هيلاري لاوية الشفتين، وأفصحت لهجتها عن مشاعرها أكثر مما أرادت، فلطالما شعرت بالمرارة والحسرة من جنفييف. كانت هي أخت بلين، ومع ذلك بقيت جنفييف محط اهتمام بلين. كانت جنفييف ذات العينين البنفسجيتين الكبيرتين والشعر الذهبي الكث الرائع، مرتدية معطفاً كحلياً بسيطاً وقميصاً أزرق، وبنطلون جينز أزرق، وحذاءً خفيفاً في قدميها، ومع ذلك بدت كعارضة أزياء في آخر مجموعة «رالف لوران». فتاة متألقة مثل أمها ذات الأنوثة الأخاذة، وقال مرافقها بدون لباقة:

ـ رباه، كم هي جميلة، أليس كذلك؟ إنها رائعة، كيف استطاع شاب مثل كولين غاريت، حتى وإن ورث أموال غاريت، أن يكسب قلبها؟

ـ حسناً، لقد تمكن من ذلك.

أجابته هيلاري بعنف وقد تملكتها الغيرة، ثم وضعت جانباً كأس العصير الذي كان في يدها، ونهضت. بدت جنفييف متجهة نحو المصاعد وعليها أن تمنعها قبل أن تصل إلى بلين. عليها أن تعترض طريقها.

قالت لصديقها بابتسامة زائفة:

ـ لا تذهب. سأقول لها كلمتين ثم أعود على الفور.

فأشار صديقها إليها بأن تذهب. ما الذي تفعله هنا وحدها في الليل؟ وفي مثل هذا الوقت؟ مهما كان السبب فهو لم يعجب هيلاري، إذ بدا

www.elromancia.com

عليها الإستياء. ربما لأنها تحاول أن تفهم سبب وجود قريبتها هنا.

كانت هيلاري جميلة، سوداء الشعر والعينين، ولكنها تفتقر إلى سحر آل كورتلاند المذهل وطول قاماتهم. وصلت إلى جنڤييف التي كانت على وشك دخول المصعد، ونادتها بإلحاح لفت انتباه الموجودين:

ـ مرحباً، يا جنڤييف.

ـ هيلاري. يا لها من مفاجأة.

والتفتت جنڤييف باذلة جهدها لإخفاء ذعرها من هذه الإعاقة. ورغم الجهود التي بذلتها لكسب صداقة أخت بلين الصغيرة أدركت جنڤييف منذ وقت طويل، أن هيلاري لا يمكن أن تحبها.

ـ إلى أين أنت ذاهبة؟

لم تشأ جنڤييف على الإطلاق أن تثق بهذه الفتاة المتقلبة المزاج، ولكن أي عذر آخر يمكنها أن تقدمه؟ لذا قالت ببساطة:

ـ أريد أن أرى بلين لحظة واحدة. قال موظف الاستقبال إنه موجود.

ـ في الواقع هو لم يخرج.

وأمسكت بذراع جنڤييف تشدها بعيداً كمن يفضي بسر، ثم أردفت:

ـ إنه مع سالي. لقد تناولا العشاء معاً في الفندق، وهو معها الآن... هل تدركين ما أعني؟ لو كنت مكانك، لأرجأت كل سؤال حتى الصباح. لا أظنك تريدين أن تربكيهما.

وأدارت عينيها وهي تبتسم ابتسامة ماكرة.

شعرت جنڤييف بمثل سهم يخترق صدرها، وتملكتها رغبة في الهرب.

ـ لا أظن ذلك، يا هيلاري.

فقادتها هذه إلى حيث يوجد كرسيان.

ـ اسمحي لي أن أنصحك. عليك حقاً أن تحاولي التغلب على عادة اللجوء إلى بلين لالتماس المساعدة.

نبهتها بلطف، وحاولت جاهدة أن تخفي غبرتها: «غداً في مثل هذا

الوقت ستكونين امرأة متزوجة».

ولم تستطع هيلاري أن تمنع نفسها من الإبتسام بانتصار، وهي تضيف:

ـ ستدخلين حياة جديدة. سيكون اسمك جنڤييف غاريت وليس كورتلاند، أليس هذا بهيجاً؟

أزاحت جنڤييف بهدوء يد الفتاة عن ذراعها. لم تشعر يوماً في حياتها بالانزعاج كما تشعر الآن، ثم قالت، وقد وضعت جانباً كل سنوات التظاهر والإدعاء: «أنت لم تحبيني قط، أليس كذلك يا هيلاري؟ أرجو منك في هذه الليلة الفاصلة أن تخبريني ما الذي فعلته لك لكي تكرهيني؟»

وانفجرت هيلاري بضحكة رنانة متدفقة: «آه، يا جنڤييف. أنت تعلمين حتماً أن وجودك دمر حياتي بأسرها».

ـ كيف؟ ولمَ هذا الخوف مني؟ لم أشأ أن أؤذيك، وكان يمكن أن نكون صديقتين... صديقتين حميمتين. نحن نسيبتان وهذه علاقة لا تنفصم لكنك لم تسمحي لي يوماً بأن أقترب منك.

ـ ولماذا أسمح لك بذلك في حين تمكّنت من الوقوف بيني وبين أخي؟

وبدا وجه هيلاري الجميل بشعاً الآن.

ـ هذا هراء، يا هيلاري، فبلين يحبك كثيراً.

ـ لا، إنه لا يحبني. ليس تماماً، فقلبه لك وحدك، أنت اليتيمة الأب. لقد أعجبته عندما كنت طفلة، حتى إنك سلبتني حب أبي أيضاً.

وصدرت عنها شهقة صغيرة، قبل أن تردف قائلة: «عندما كان أبي حياً، كان كالخاتم في إصبعك ولم يكد يلحظني».

شعرت جنڤييف بأنها على وشك الانفجار بالبكاء: «كيف جعلت كل هذه المرارة تنمو في قلبك؟ مسكينة هيلاري. أنت تحطمين قلبي».

ـ لا أظن ذلك.

فأجابت جنڤييف وقد جرحت في الصميم: «بل هو صحيح تماماً».

www.elromancia.com

فابتسمت هيلاري بما يشبه المودّة: «لهذا أنا مسرورة بزواجك. كنت أعلم أنك، يوماً ما، ستخرجين من حياتنا».

فوقفت جنڤييڤ باحتجاج: «هذا مستحيل. كيف تشعرين على هذا النحو أو تقولين كلاماً كهذا في وجهي، ومع ذلك تحضرين عرسي؟».

نظرت هيلاري إليها والحقد يلمع في عينيها، ثم قالت:

ـ في هذا اليوم، يا عزيزتي الحلوة الرائعة جنڤييڤ، سيسلمك أخي إلى رجل آخر إلى الأبد.

* * *

كانت هيلاري لا تزال جالسة في مكانها وقد سرّها أنها تخلّصت جنڤييڤ، عندما ظهر بلين أمامها فجأة فكادت تقفز مجفلة. سألها بإلحاح:

ـ أليست تلك جنڤييڤ؟

جاهدت هيلاري لكي تتمالك نفسها. كيف يمكنها أن تنكر ذلك الشعر الذهبي، والقوام الممشوق، والحركات الرشيقة؟

ـ بلى، مرّت فقط لإلقاء التحية.

وحاولت أن تبتسم وهي تفكر بسرعة.

ـ هذا غريب تماماً.

وبدا بلين مضطرباً، فنهضت وأمسكت بذراع أخيها: «ليس غريباً في الواقع. فهي تقيم الليلة حفلاً يقتصر على الفتيات. وتلك كانت سيارة جنڤييڤ المركونة أمام الفندق، آسفة إذ فاتتك رؤيتها».

ـ وكيف كان حالها؟

فقالت له ببراءة بالغة: «بدت سعيدة للغاية، لم أر من قبل فتاة عاشقة إلى هذا الحد».

فتوترت شفتاه: «يا للحمقاء! لن يسعدها أبداً».

فقالت مصرّة على إقناع أخيها: «بل سيسعدها، يا بلين، فهي حب حياته».

وقد تخلصنا منها أخيراً، كما فكّرت في سرّها.

ـ لا تقولي هذا.

قال بلين هذا محذراً بصوت غريب جعل هيلاري تنظر إليه بذعر، ثم سألته لتحوّل انتباهه: «أين سالي؟».

فقال وهو لا يزال عابساً: «رحلت منذ ساعة، وأنت تعلمين هذا حتماً، فقد مررنا بقربكما أنت وصديقك».

فقالت كاذبة: «لم أركما... سالي فتاة رائعة. وأنا وأمي مسرورتان جداً لأنها المرأة التي اخترتها».

فقال بنفاد صبر: «لا تكوني غبية. أمك لا تفكر في أشياء كهذه. أما بالنسبة إليك، فهذا ما تتمنينه. هل أنت واثقة أن كل ما أرادته جنڤييڤ هو إلقاء التحية».

ـ وماذا غير ذلك؟

تمنّت هيلاري لو تهرب، لكنها بدلاً من ذلك قالت: «إنها فوق السحاب، هي نسيبتي وأنا أعرفها».

ـ لماذا إذن لم تقبلي أن تكوني من بين إشبيناتها.

تحداها بلين بهذا السؤال وهو يرمقها بنظرة ثاقبة جعلتها تشعر بأن نواياها مكشوفة. وحاولت أن تمزح: «أنت تعلم أن جنڤييڤ طويلة جداً وكذلك صديقاتها. فلم أشأ أن أكون أضحوكة وسطهن، وجنڤييڤ تفهمت ذلك، تعال واجلس معنا دقيقة».

وكانت بهذا تعلم أنها تبعد أخاها الذي قال: «لا شكراً، أريد أن أترك خبراً في المكتب، تصبحين على خير، يا هيلاري، أحلاماً سعيدة».

ووقفت على رؤوس أصابعها تقبل وجنته قائلة: «ولك أيضاً يا أخي، سيكون غداً يوماً رائعاً. وأنا متشوقة بقدر جنڤييڤ لهذا اليوم السعيد».

* * *

www.elromancia.com

٢ ـ يوم الزفاف

جلست اشبينات جنڤييڤ الأربع، في غرفة أمها الفسيحة ورحن يثرثرن ويضحكن. وكانت الفتيات قد اتبعن حمية قاسية طوال الشهر الماضي، ليتمكّن من ارتداء أثوابهن الجميلة والتزيّن باللآلىء الوردية التي أهداهن إياها العريس كولين غاريت، وريث جورج غاريت ملك الشحن.

ـ حان الوقت لتفكري في ارتداء ثوبك يا جنڤييڤ.

ألحت عليها أمها تستعجلها، شاعرة بالاستياء من نقص الحماسة لدى ابنتها: «لقد تأخر الوقت».

والتفتت انجيل إلى تيفاني، ففهمت هذه وتوجهت إلى غرفة ملابس انجيل وأحضرت ثوب جنڤييڤ وهي تقول: «جاء دور العروس».

حاولت تيفاني إظهار المرح، لكنها، هي أيضاً، تملكها القلق للنظرة البادية في عيني صديقتها، التي تركت في نفسها ألماً بالغاً. لا يمكن أن يكون هذا مجرد توتر في الأعصاب، إذ بدت جنڤييڤ وكأنها لا تريد أن تتزوج، أقله ليس بكولين غاريت، رغم أن كثيرات، بمن فيهن تيفاني نفسها، يجدن كولين بالغ الجاذبية.

وهتفت مونتانا وهن يتجمعن حول الثوب: «يا إلهي! جماله يخطف الأنفاس».

فقالت أستريد التي عقصت شعرها الداكن على رقبتها: «أتشوق لرؤيتك فيه، يا جنڤييڤ. هيا، توتر أعصابك جعلك شاحبة اللون».

استطاعت جنڤييڤ أن تضحك لكلام صديقتها، وردّت:

ـ أشعر وكأنني أتنازل عن حياتي.

وخطت داخل ثوبها ثم وقفت جامدة بينما راحت أمها تجر السحاب من الخلف.

قالت انجيل وهي تتأوه بشكل مبالغ فيه: «يا إلهي. لقد أصبحت جنڤييڤ هزيلة تماماً. يحتاج الخصر إلى ثنية أخرى».

فقالت جنڤييڤ وهي تبتعد بهدوء: «لا بأس بالثوب ولا داعي لهذه الضجة. لا أريد ضجة».

ـ كما تشائين يا عزيزتي، كما تشائين.

تكلّمت انجيل بلهجة خالطتها نبرة حنان أمومي نادرة، محاولة بذلك التخفيف من نظرة اللوم التي رأتها في عيني تيفاني. يا لوقاحة هذه الفتاة! يجب أن يؤنبها أحد على سلوكها هذا. راحت انجيل تحدق في وجه ابنتها وقد تملكتها موجة ذعر باردة.

حاولت جنڤييڤ أن تفتح لها قلبها، لكنها لم تشأ الإصغاء، وما زالت ترفض ذلك حتى الآن. فلقد كانت متلهفة لكي تزوج ابنتها من الرجل المناسب، رجل يعرف كيف يحترم حماته الجميلة ويغرقها بالهدايا. حاولت أنجيل أن تركز اهتمامها على ابنتها التي بدت شاحبة جداً على الرغم من السمرة الذهبية التي تسبغها شمس الصيف دوماً على بشرة جنڤييڤ. وكانت عيناها البنفسجيتان من الاتساع بحيث ملأتا وجهها. ربما يجب أن تكون حمرة شفتيها داكنة أكثر.

ـ والآن، النقاب.

اقتربت مونتانا، وهي الوحيدة التي لم تشعر بالتوتر أو ربما فسرته بخوف العروس المعتاد وتوتر أعصابها، وحملت معها النقاب الشفاف، والتاج المصنوع من ثلاث وردات حريرية. وضعتهما على رأس صديقتها، مبقية شعرها الطويل منسدلاً على كتفيها، ثم قالت: «انتهينا يا حلوتي».

ونظرت مونتانا البالغة الجمال إلى صديقتها متأملة، فرأت على وجه

جنفييف تعابير مختلفة كافية لأن تثير قلقها. صحيح أن كولين غني جداً، ومرح جداً، لكن لا يمكن أن يقارن بشخص مثل... مثل ابن عم جنفييف، مثلاً، بلين كورتلاند تاجر المواشي. لكنه قريبها، وهو من يفترض به أن يسلمها إلى عريسها في الكنيسة.

ـ جنفييف متوترة الأعصاب قليلاً.

ونظرت أنجيل إلى ابنتها مشجعة.

ـ الأعراس الكبرى مقلقة دوماً.

وأخذت، هي ومونتانا تسويان النقاب الطويل.

ـ تبدين رائعة حقاً، يا جنفييف، أنت تبعثين الدموع في عيني.

وقبلت مونتانا وجنة صديقتها برقة فائقة قائلة: «أتمنى لك السعادة. وأنا متأكدة من أن كولين لن يدع البسمة تفارق ثغرك أبداً. ولولا أنه يحبك أنت للاحقته أنا نفسي».

قالت انجيل تخاطب ابنتها: «إرفعي رأسك يا جنفييف وحاولي أن تبتسمي، أرجوك».

بدت انجيل رائعة في ثوبها الفيروزي الموشح باللون الذهبي الذي يتلاءم تماماً مع القبعة التي اعتمرتها، كفراشة اسطورية هبطت من النجوم.

لم تكن جنفييف واثقة من أن بإمكانها أن تبتسم، فالمشاعر المتضاربة تعذبها، كما أنها ابتدأت تشعر بتقلص في معدتها. فهي، من ناحية، لا تريد أن تصبح محط أقاويل الصحف التي ستتبارى في وضع اللوم عليها، والإشارة إلى سمعة أمها المتقلبة ومن ناحية أخرى وجدت نفسها عاجزة عن إيذاء كولين الذي يريدها والذي وثق بها. لم تكن واثقة تماماً من أنه يحبها، فهو لم يظهر لها أي مشاعر جياشة، وقد أدركت ذلك الآن.

شعرت بأنها حمقاء، نعم، حمقاء هي الكلمة المناسبة التي ستعيش معها على الدوام. حمقاء تعرض حياتها للحيرة والخسران.

كان بلين محقاً كالعادة، وتمنت فقط لو أنه لم يظهر مشاعره في

ذلك اليوم. لأنه لو لم يفعل، لاستطاعت أن تختبىء من مشاعرها بسهولة. لكنها الآن فهمت الحقيقة... وأدركت أنها تورطت في هذا الزواج لأن العريس كان لطيفاً معها للغاية ومرد ذلك طبعاً إلى طفولتها المحرومة من المشاعر. فكيف تصورت أنها تحب كولين؟

وبدأت تتساءل عما إذا كانت تعرف حتى ما هو الحب. بين ليلة وضحاها تحولت إلى امرأة مختلفة، ولكن عليها أن تتحلى بالشجاعة لتتصرف. عليها إما أن تمضي قدماً لكي تتجنب الفضيحة التي ستحدث، وإما أن تحبس نفسها في غرفتها وترفض الخروج. ليتها استطاعت أن تتحدث إلى بلين الليلة الماضية!

غمر الحزن قلبها وأدركت أن عليها أن تستجمع قوتها لكي تمحو بلين من ذهنها، فزواجه من سالي بات وشيكاً، كما أعلمتها هيلاري، لكنها لن تقوى على الحضور.

ضاع منها بلين إلى الأبد، وهذا بالذات ما جعلها تمضي في هذا الزواج.

وصرخت أنجيل: «حان وقت الحفلة. أنا واثقة أنك أجمل عروس رأيتها في حياتي».

وتمتمت استريد لتيفاني: «بعض الناس محظوظون على جميع الصعد».

نزلن السلالم الرخامية العملاقة، وتمنت تيفاني لو أنها أذعنت لرغبتها في إقناع صديقتها جنفييف بالعدول عن هذا الزواج.

ـ يبدو أن حماس انجيل لم ينعكس على جنفييف. يبدو وكأنها تريد أن تهرب.

همست تيفاني بذلك لأستريد التي أمسكت بكم صديقتها، قائلة: «هذا رائع! إذا لم تشأ جنفييف أن تتزوجه، يمكنه أن يتزوجني».

في الطابق السفلي، كان بلين كورتلاند واقفاً في مدخل الردهة المبلطة بالرخام والمزينة بمختلف أنواع الورود والرياحين. بدا متألقاً في

سترته وسرواله الرماديين وقميصه الأبيض وربطة العنق الزرقاء المثبتة بدبوس ماسي. لكن وجهه الوسيم فارقته كل بسمة. هو أيضاً، لم يكن يشعر ببهجة العرس رغم أن الجميع يعرف أنه هو من دفع النفقات.

همست مونتانا لبينلوب: «إلهي... أليس رائعاً، سيد المواشي هذا؟»

ثم أضافت والبهجة تتملكها لوجودها في هذا المحيط المترف البالغ الثراء والتألق: «أنا مولعة بالسمر ذوي الغمازة في الذقن».

- إنه على وشك الزواج بسالي فينويك يا عزيزتي. وهي من أسرة معروفة.

فقالت مونتانا متأوهة: «ولكن ألا ينبغي أن يذكّره أحدهم أننا في عرس وليس في مأتم، فهو يبدو خائفاً بعض الشيء. أظن يا تيفاني أن ثمة خطب ما».

هذا صحيح فجنفييف لا تبدو سعيدة، وكذلك قريبها الذي يشبه تماماً صورة الرجل الذي حلمت جنفييف بأن تتزوجه. راودت هذه الأفكار تيفاني وهي تعلم أن ذلك يصعب حصوله. فتيفاني تعرف منذ أكثر من إحدى عشرة سنة أن جنفييف ترى في بلين مثلها الأعلى.

نزلت جنفييف ببطء وخوف إلى الردهة الرائعة ذات الأعمدة الرخامية الشبيهة بمعرض فني.

لكنها اليوم، لم تلحظ الأعمال الفنية، ولا السقف المزخرف، ولا الثريات التي تخطف الأنفاس ولا المرآة المذهبة الرائعة، فعيناها شاخصتان إلى بلين وهي تفكر في أن حبها له سيبقى سرها المأساوي الدفين. بدا رائعاً، لكن وجهه المرفوع إليها برزانة بالغة، وهذا اللمعان في عينيه، جعلاها تشعر وكأنها تغرق في بحيرة من الفضة.

ولكن عندما وصلت أخيراً إليه، وكأنما تجذبها إليه قوة مغناطيسية هائلة، أحنى رأسه، متمتماً:

- مرحباً، يا طفلتي البريئة. تبدين رائعة. كنت أعلم أنك ستبدين

كذلك.

وازداد انخفاض صوته حتى لم يعد يسمعه سواها: «أريد أن أعلمك يا جنفييف أنني سأكون دائماً إلى جانبك، مهما حدث. لن أدع أحداً يؤذيك أو يسبب لك التعاسة».

صدر عنها صوت خافت معذب، والتهبت عيناها البنفسجيتان.

- آه، يا بلين. لماذا لم أستطع أن أتحدث إليك الليلة الماضية؟

قطب حاجبيه على الفور، وسألها بلهفة والحاح: «هل أردت التحدّث إليّ عندما جئت إلى الفندق؟».

سرى توتر ثقيل بينهما، وبدا الضيق في وجهه، وفي عينيه. فخافت مما سيؤدي إليه هذا.

- لا بأس يا بلين، في مطلق الأحوال، كان الأوان قد فات.

- ماذا؟

نظر إلى عينيها، مضيفاً: «أريد أن أعرف ما تعنين، يا جنفييف؟ لا تخافي».

لكنها خائفة... وراحت تفكر بحرارة: أنا خائفة منك ومما تعنيه لي، خائفة من مشاعري التي نمت وتفتحت كأزهار برية خفية.

- هيا يا بلين وجنفييف.

نادتها انجيل، التي كانت مشغولة بتثبيت مشبك سوارها الماسي وراحت ترمقهما بنظرات قلقة فلطالما أدركت أن بين بلين وابنتها رباطاً عميقاً خفياً لا ينفصم.

تجاهلها بلين، مركزاً كل اهتمامه على جنفييف وهو يقول: «جنفييف، عليك أن تخبريني الحقيقة. أتحبين هذا الرجل؟».

سادت لحظة صمت... عليها أن تخبره الآن أو أن تصمت إلى الأبد.

ثم تذكرت سالي وهي تبتسم مزهوة في احتفال البولو هذا العام لأنها بالقرب من بلين.

وقالت جنفييف بهدوء: «يجب أن أحبه يا بلين. فأنا سأتزوجه».

www.elromancia.com

ـ هل هذا ما تريدينه حقاً؟

كان واضحاً أنه لم يصدقها.

ـ رباه، أنت عنيد يا بلين.

أرادت أن تعاقبه كما عاقبها، فتكلمت بغضب وبألم بالغ وكبرياء. كان عليها أن تمنعه من طرح مزيد من الأسئلة، فقد فات الأوان.

ـ سامحيني، وأتمنى لك كل السعادة.

ـ أعلم أن هذا غير صحيح.

وجدت جنڤييف نفسها تقول له هذا بعنف بعد أن لم يعد لديها ما تخسره. فقال لها محذراً وقد ضاقت عيناه: «انتبهي إلى ما تقولين».

كان الجميع مسحوراً تماماً عند مدخل الردهة بما يحدث بين جنڤييف وابن عمها. ورغم أن أحداً لم يسمع ما يدور بينهما، إلا أن نظراتهما فضحت الكثير. كان هناك حزن، وغضب وألم، وخصام. وبدا وجه جنڤييف شاحباً للغاية، لكن الاحمرار أحرق وجنتيها.

لم يكن ذلك ينبىء بالخير، وشعرت انجيل بأنهما قد يرحلان معاً، وإذ أوشك اليأس أن يتملكها، تدخلت قائلة: «المصورون!».

والتفتت بسرعة تشير بإصبعها إلى مصور شهير بتنظيم الأعراس، لكنه لم يتحرك.

ـ علينا أن نتوجه إلى الكنيسة الآن.

ـ ما زال أمامنا متسع من الوقت، يا انجيل.

قال بلين هذا وهو يلقي نظرة على ساعته، شاعراً وكأنه أسد يريد أن يحمي صغاره. فلا أحد يمكنه أن يرغم جنڤييف على هذا الزواج.

بلين رجل قادر على أي شيء. أخذت انجيل تفكر في ذلك وهي تدفعهما بسرعة إلى غرفة الاستقبال الرسمية الفخمة المطلة على ميناء سيدني. ثم قالت له بصوت خافت كهديل الحمام داعية الله أن يجعله يهدأ: «تعال».

بدت الصرامة على وجهه وهو يتقدم ليقف إلى جانب انجيل ثم يقول

لها: «تصرفات جنڤييف لا تعجبني. إذا لم تكن سعيدة بهذا الزواج، فما زال هناك وقت للعدول عنه».

دب الذعر في نفس انجيل فقالت له: «بلين، عزيزي. يستحيل أن تكون جاداً. كانت جنڤييف تخبرني كل يوم بمدى سعادتها وحبها لكولين، لقد خلقا لبعضهما البعض».

أثبتت انجيل حقاً أنها ممثلة متفوقة.

ـ كلام فارغ. عندما تكونين مغرمة، لا تبدين كما تبدو هي الآن. أنا أعرفها جيداً.

ـ يا إلهي، يا عزيزي، أنت لم تجرب الحب بجنون قط، فكيف تعرفه؟

ـ الأمر بسيط. كل ما عليك فعله هو أن تأخذي عطلة بعض الوقت وتحاولي أن تفهمي ابنتك. على كل حال، جميع النساء اللواتي عرفتهن لا يزلن صديقاتي، وهذا لا ينطبق عليك.

عبست انجيل، من دون أن تنزعج من الحقيقة القاسية.

ـ أنت تحب أن تقول مثل هذه الأمور، أليس كذلك يا عزيزي؟ يمكنك أحياناً أن تكون مخيفاً، يا بلين؟

ـ نعم ما دام ذلك في سبيل سعادة جنڤييف وخيرها. أنظري إليها يا انجيل. إنسي نفسك وخططك وانظري إلى جنڤييف وإلى شحوبها.

وكان نظره مصوباً إلى وسط القاعة حيث تقف جنڤييف للتصوير.

ـ يا إلهي، لا أصدق هذا.

تمتم بلين بذلك وهو يلوم نفسه لأنه لم يخطف العروس بكل بساطة. وتواترت إلى ذهنه مئات الذكريات عن جنڤييف الحلوة بعينيها البنفسجيتين المشعتين وخصلات شعرها الثائرة.

كان في العاشرة من عمره عندما أحضر ستيفن، ابن عم أبيه المفضل، ابنته الصغيرة إلى «جوبيلي». وكان صبياً صعباً عنيداً قد عرف قلبه اليأس لأن أمه الرائعة الجمال تركته وأباه وهربت من المنزل. وكان ذلك حدثاً

www.elromancia.com

غير متوقع على الإطلاق ومنافياً للأخلاق إلى حد جعله يظن أحياناً أنه لا يزال تحت تأثير الصدمة.

دخلت جنڤييڤ حياته في الوقت المناسب. وعلى مدى سنوات منحها كل ما استطاع قلبه أن يحوي من حب، فقد كانت بريئة حلوة ذكية وكريمة في حنانها وعطفها.

وعندما ابتدأ ستيفن وانجيل يتباعدان، جاءت جنڤييڤ لتمضي مزيداً من الوقت في جوبيلي حيث عادت إلى (عزيزها) بلين. كما كانا قريبين من بعضهما البعض حينذاك. علمها كل شيء: السباحة، وركوب الخيل واستعمال البندقية، أما ما لم يستطع أن يعلمها إياه فهو اختيار الرجل المناسب. وفي الواقع، منذ بلغت جنڤييڤ السابعة عشرة تملكه القنوط من اختيارها، إذ لم يجد أباً من الذين اختارتهم مناسباً لها. وعلى الأخص غاريت، رغم ثرائه، فقد كان ينقصه الجوهر. وكلما حاول أن يقربها منه، ثار غضبها، مدعية بأنه بعد كل الحب الذي أكنّه لها في الماضي، أصبح الآن يزدريها.

لكن ذلك لم يكن صحيحاً، فهو يتوق إلى تلك العلاقة القديمة التي ربطتهما. ففي السنوات القليلة الماضية نشأ بينهما شعور غريب من التكلف والإرتباك والكبت لم يعرف أي منهما كيف يزيله ولم تعد جنڤييڤ تركض إليه طلباً للنصيحة أو التعزية.. أم أن هذا غير صحيح؟ ما الذي كانت تفعله في الفندق الليلة الماضية؟ أخبرته هيلاري بأن جنڤييڤ زارتها هي. كان عليه أن ينتبه أكثر لخداع أخته، فهي لسوء الحظ، تغار جداً من جنڤييڤ. كل من في الأسرة يعلم هذا.

وبينما بلين شارد في تأملاته، وعيناه تتألقان كالماس، كانت انجيل تقول بمرح بالغ: «جنڤييڤ تبدو لي سعيدة جداً، يا عزيزي. إنه توتر العرائس المعتاد، ليس أكثر».

ثم ابتسمت لبلين قائلة: «أنت تقلق من غير داعٍ. لطالما كان لديك دافع قوي للاحتفاظ بجنڤييڤ لنفسك».

وابتسمت انجيل عندما رأت برنارد المصور يسوي نقاب جنڤييڤ الطويل.

ـ أليست باقة زهورها رائعة؟

أجاب بلين باختصار يمكن تفسيره بسهولة بعدم الموافقة: «إنها أجمل مخلوقة رأيتها في حياتي، ولكن لا أحد، حتى جنڤييڤ نفسها، يمكن أن يقنعني بأنها تحب كولين. ولا أستطيع أن أراها تتزوج رجلاً لا تحبه».

وعندما أكمل حديثه من دون مقاطعة، وضعت انجيل يداً مرتجفة على صدرها مغالبة دموعها لئلا تفسد الكحل في عينيها، وقالت: «بلين، ربما لديك مشكلة، ولكن جنڤييڤ لا».

ورفعت وجهها إليه، فوجدت عينيه الرائعتين تخترقان أعماقها رغماً عنها.

ـ لا يمكنك دوماً أن تسير حياتها. أنت هنا لتسلمها إلى عريسها، يا عزيزي. بعد أقل من نصف ساعة ستسيران، أنت وجنڤييڤ في ممر الكنيسة بكل روعة، نحو المذبح. أنا أعرف أن حياتكما، ستتغير، ولكن أنظر إلى الأمور من الناحية الإيجابية. لن تضطر للقلق من أجلها بعد الآن، ولن يكون عليك أن تسدّد فواتيرها.

قالت هذا كله بدون أي حرج، لكن بلين أجابها بنبرة خفيفة من الإزدراء: «نحن لا نتحدث عن المال. ولو أنني واثق من أن جنڤييڤ ستتزوج الرجل الذي تحبه لاختلف الأمر».

ـ بلين، عزيزي.

جرّبت انجيل أكثر لهجاتها إقناعاً، مائلة برأسها إلى الخلف لتتمكن من النظر إلى عينيه مباشرة.

ـ أخبرتني ابنتي الليلة الماضية أنها لم تكن يوماً سعيدة كما هي الآن ولن تحتاج شيئاً في حياتها. أليس هذا رائعاً؟

لم يبتهج بلين على الإطلاق لما سمعه، فأجابها بحدة: «ومن يهتم

www.elromancia.com

بذلك بحق الله! لا أظن جنڤييف من الغباء بحيث تتزوج لأجل المال».

تحيرت انجيل لمثل هذا الرأي، فأجابت: «هذا صحيح بالنسبة لمن لديه الكثير. لأن المال أهم من أن لا يبالي المرء به».

فتنهد بلين بضجر: «كل ما أرجوه هو ألا يكون رأيك رأي جنڤييف أيضاً. كولين غاريت لا يستحقها، صحيح أنه راق لي عندما أحضرته جنڤييف معها في المرة الأولى إلى «جوبيلي»، لكنني لم أظن لحظة أنه الرجل الذي تفكر في الزواج منه جدياً».

كان من الصعب جداً عليه ألا يظهر حماساً في كلامه، فقالت تغيظه: «تابع كلامك، يا عزيزي. أنا واثقة من أن جنڤييف حاولت أن تخبرك. أنا أعلم أنك تهتم بها حقاً، ولكنك لم تظهر لها الكثير من الحنان. والحقيقة أنك ورثت سلوك أبيك وهكذا غرقت جنڤييف في حب كولين والشخص الوحيد الذي لم يعلم بذلك هو أنت».

وأطلقت انجيل ضحكتها الرنانة التي بدا فيها التوتر.

لكن برنارد، المصور الاجتماعي، أوقف رد بلين الحاد: «حان دورك الآن، يا والدة العروس».

وانحنى برشاقة في اتجاه انجيل رغم أنه لم يكن يميل إليها إطلاقاً.

- كما أن ابن عم العروس هو تاجر الماشية المعروف، السيد بلين كورتلاند. ولهذا، لا يمكن أن أدعك تهرب.

- يا إلهي.

تمتم بلين بذلك بصوت خافت. بعد دقائق قليلة سينفرد بجنڤييف في السيارة وسيعاملها بغاية الرقة والحنان، فتلميح انجيل إلى (نقص حنانه) لسعه حقاً. وهو متلهف الآن لجعل جنڤييف تكشف عن مشاعرها.

* * *

جلست جنڤييف داخل سيارة الليموزين الفارهة بملابس العرس الفاخرة وقد احتل الثوب المقعد، وتكوم النقاب إلى جانبها. راحت تنظر

خارج النافذة بحزم. فلو تجرأت على القاء نظرة على بلين الجالس أمامها، لرأى يأسها. وراحت تغالب دموعها وتمنعها من أن تنهمر على وجنتيها. بلين! أخذت تردد اسمه مرة بعد مرة في سرها محاولة أن تستمد القوة منه.

أنا أحبك، وسأحبك دوماً.

كانت هذه الحقيقة أشبه بهبة ريح عصفت بقلبها. شعرت بذهنها مشتتاً ورأسها يدور. لقد دسوها في تمثيلية من إخراج أمها. لا يمكن أن أفعل هذا بنفسي، لا يمكن أن أفعل هذا بكولين. وشعرت بالعذاب... إنه لا يستحق أن أفعل هذا به.

أجفلت بعنف وراحت ترتجف بشدة حين لاحظ بلين: «يا إلهي يا جنڤييف، وكأنك تتزوجين في فصل الشتاء، يداك متجمدتان».

- لقد وبختني انجيل على سلوكي. أخبرتني الحقيقة التي كان علي أن أسمعها. لم أكن رقيقاً للغاية معك مؤخراً، أليس كذلك؟ وكما قالت أمك، لم أظهر لك حناناً كثيراً.

كاد هذا الاعتراف منه يسحقها وترقرقت الدموع في عينيها، فهمست تقول: «وأنا أيضاً لم أكن لطيفة معك، الغريب هو أن طبعي لا يسوء إلا معك. أنت تجعلني أتمزق غضباً».

فقال بجفاء: «هذا واضح، يا طفلتي. أنا أعرف أنني متسلط، وأنني لا أحتمل ما يبدو لي تافهاً. وعليك أن تراعيني في ذلك، الحقيقة هي أنني ملتزم بشيء هام حقاً، وهو سعادتك. لا. لا تبتعدي عني».

قال هذا ضارعاً عندما مالت إلى الخلف وأغمضت عينيها، شاعرة بأنه يغزوها، قلباً وروحاً.

- أنا أعرفك يا جنڤييف، أو أقله كنت أعرفك.

بدا لمعان لا يقاوم في عينيه الجميلتين اللتين تحبهما.

- فقط أخبريني مرة أخرى، لآخر مرة... أعدك بذلك. أخبريني بأنك تحبين كولين، وأن جل ما تتمنينه هو أن تتزوجيه.

www.elromancia.com

لم تسمح لها حالتها العاطفية بتذكر وجه كولين.

ـ أرجوك، يا بلين. هلاّ كففت عن طرح الأسئلة؟

قال لها بتلك الرجولة المسيطرة الصلبة:

ـ لا. إذا كنت تخشين هذا الزواج، فأخبريني فقط. وأنا سأهتم بكل شيء.

ثم أضاف: «صحيح أن هذا الأمر يثير العجب والأقاويل لمدة قصيرة، ولكنك ستجدين بعدها حياتك».

أحقاً ستجدها؟ وعادت بها الأفكار إلى سالي فينويك.

ـ أخبرتني هيلاري أنك وسالي على وشك تحديد موعد زواجكما.

ومرة أخرى أشاحت بوجهها لتنظر من النافذة بعينين شاردتين.

أعاد بلين رأسها نحوه، محباً وكارهاً مظهرها في ثوب العرس: «هل هذا ما قالته لك هيلاري الليلة الماضية؟».

سألها بغضب بالغ فأجابت وقد بلغ بها الكدر أشده: «ربما. أرجوك يا بلين لا تعذبني. احترم مشاعري».

ـ مشاعرك عندما تتسارع خفقات قلبك؟ عندما أستطيع قياس شعورك من خلال عينيك؟

وكانت ضحكته خافتة عنيفة. وتابع يقول: «لو لم يكن تفكيراً جنونياً، لاعتقدت أنك تحاولين الانتقام مني لأنني عنفتك وغضبت منك».

فارتجفت أنفاسها: «لماذا فعلت ذلك إذن؟ لقد صعقت حتى كاد يغمى عليّ».

فقال يذكرها بمرارة: «أذكر ذلك، فقد كنت هناك».

فنظرت إليه، والفضول يتآكلها، وسألته مجدداً: «لماذا يا بلين؟ لقد غيرت كل شيء، في لحظات قليلة بالقوة».

ـ حقاً؟ عندما تكونين معي لا أشعر بأنك منزعجة.

خفضت ناظريها وقد تملكها الضيق، ثم سألته: «ولكن ماذا عن

سالي؟».

فأصدر صوت سخط بالغ: «لا تكوني غبية بهذا الشكل. سالي مجرد صديقة، صديقة فقط، لكنها ليست المرأة التي أحلم بها. لم أهتم يوماً لأمر امرأة كما اهتممت لأمرك».

ـ نعم، كحيوان مدلل، وليس كامرأة ناضجة.

ـ لن نعود إلى ذلك مرة أخرى، أليس كذلك؟

ـ أبداً، لا بد أنك تعلم أنني لا أستطيع العيش من دونك ولكن لدي خبراً لك.

وارتجفت كلماتها... كانت شاكرة لوجود الزجاج الذي يفصلهما عن السائق.

ـ سأتزوج كولين.

ـ وتدمرين حياتك؟

ـ أنت كريه... ولاذع.

ـ يحزنني القول إنني كذلك لكنك تستفزينني. أنت تعلمين ما في أعماقي المظلمة يا جنڤييڤ، وأنت معتادة على انفعالاتي بقدر ما أنا معتاد على انفعالاتك. لقد أسأت معاملتك لا سيما في المدة الأخيرة، وأنا أعتذر لهذا. ولكنني خرجت عن طوري لأنني لم أستطع أن أستميلك أو أتفاهم معك. كنت دائمة التحدي والعصيان وأذقتني المر في الواقع.

كان في ذلك شيء من الحقيقة، وهي تراه بوضوح الآن.

فقالت بحرارة بالغة: «لا تقل ذلك، فأنا أحبك. أنا آسفة... آسفة. هل كلامي منطقي؟».

ـ لا، مع الأسف. أنت لست سعيدة وهذا واضح. أنت بحاجة إلى رجل يبعث فيك المرح والإشراق. النساء غريبات ولن أفهمهن أبداً.

لمست جنڤييڤ تطريز ثوبها وقد تملكتها التعاسة: «لماذا لم تخبرني أنك دفعت ثمن كل هذا؟».

ـ يا ليت أمك أبقت فمها مقفلاً.

www.elromancia.com

ـ أشعر بالخزي البالغ.

فقال ثائراً: «يا للسخافة. أنت من الأسرة».

وبقي لحظة عاجزاً عن الكلام. وعندما نظر من النافذة صعق حين رأى أنهما وصلا إلى الكنيسة. كان مصورو الصحف هناك مع الجموع المحتشدة يتهافتون لرؤية عروس سبق وعرفوها جيداً من خلال الصفحات الاجتماعية في الصحف.

توترت ملامح بلين وهو يقول: «قد لا أكون بالغ الشهامة يا جنڤييڤ، لكنني هنا من أجلك. إذا كنت لا تريدين هذا الزواج، فمن الأفضل أن توقفي هذا الآن».

لمع الأمل في نفسها لحظة، وإذا بها تسمع تأوهات المشاهدين لرؤيتها، فقالت له: «بحق الله، يا بلين. سينبذني المجتمع، ساعدني على إتمام الزواج».

ـ هل أنت مجنونة؟

وشعر برغبة في ضمها إليه والهرب بها بعيداً.

ـ نعم.

كانت تعلم أنّ امرها انتهى، وشعرت بالدوار عندما نزل السائق ليفتح لها الباب. لقد ولت آمالها إلى غير رجعة. ساعدني يا الله... ساعدني على التخلص من هذا الزواج قبل أن يفوت الأوان. أنا أعلم أنني أستحق هذا، لكنني لم أفهم مشاعري جيداً.

وتفجر قلبها وهي تجد نفسها واقفة في الممر الضيق والتصفيق يتصاعد. وكانت التعليقات تتصاعد من كل حدب وصوب: «أليست رائعة؟».

لكن جنڤييڤ لم تنتبه لهذا المديح. كانت تشعر وكأن ثقل الدنيا استقر على كتفيها بدلاً من نقاب ثوبها.

ـ حسناً؟

سار بلين إلى جانبها بقامته الفارعة ووسامته المدمرة. يفترض

بهذا الرجل أن يسلمها إلى عريسها، لكن التعبير البادي في عينيه اللامعتين يدل على كل شيء خلا الشعور بالقرابة العائلية وحسب.

سأحبك على الدوام. أتراها نطقت بهذا أم أنها مجرد فكرة خطرت لها.

كل ما في الأمر أنها لم تكن تعلم، ولا تفهم ذلك الحب على الإطلاق.

وجدت جنڤييڤ نفسها تسير كالمسحورة في الكنيسة القديمة الرائعة الجمال، إلى جانب بلين. بدا كل ما يجري كالحلم بالنسبة إليها، الموسيقى، والأشبينات والمدعوون بملابسهم الأنيقة... بعضهم اجتاز مسافات بالطائرة... آه، يا إلهي... من أجل ماذا؟ كانت المقاعد مزينة بشرائط الساتان الأبيض، والمذبح يتألق بالورود البيضاء، ورأت كولين ينتظر هناك. تنفست وتنفست، لكنها لم تستطع أن تتنشق ما يكفي من الهواء... كانت تبتعد عن كل هذا... يغمى عليها... وتراءت أمام عينيها نجوم كثيرة، وكان آخر ما سمعته صوت بلين وهو ينطق باسمها...

لو أن جنڤييڤ لم تحل ورطتها بنفسها، لخطفها بلين بكل بساطة، مواجهاً غضب من حوله، فقد انتقلت تعاستها إليه من نظراتها المعذبة.

ما كان محكوماً عليه بالإخفاق انتهى. فكر في ذلك وهو يرى العروس المغمى عليها. راح النقاب الرائع يسبح كسحاب في النسيم الذي هبّ من باب الكنيسة. وارتاح بلين عندما رأى ابن عمه الطبيب «مارك» يجري نحوه ليسعف جنڤييڤ، وتعهد في قرارة نفسه بألاّ ينتظر حتى تستفيق جنڤييڤ من إغمائها، بل سيأخذها إلى البيت إلى «جوبيلي». سيخطف جنڤييڤ إذا اقتضى الأمر.

وبينما كان بلين ينتظر، اقتربت انجيل التي بدت فجأة أكبر سناً وتبعها كولين، العريس واشبينه. بدا الجميع في غاية الارتباك وكأنهم لم يفهموا ما يجري. أما والدا العريس، جورج وفيكتوريا غاريت، فبديا مستائين

للغاية وبدت الأم وكأنها تريد استعادة خاتم الخطبة. تدافع المدعوون وتعالت الهمهمات، بعضهم بدا مهتماً ومتعاطفاً، في حين راح البعض الآخر يتكهن ساخراً ويتساءل عن سبب الإغماء. وابتدأت جنڤييف تستفيق تدريجياً، مدركة أنها لن تقول اليوم للكاهن «نعم».

أرجيء الاحتفال تبعاً لأوامر الطبيب الذي هز رأسه بأسى إزاء نظرة ابن عمه بلين العنيفة الآمرة قائلاً: «إرهاق في الأعصاب».

لم يستطع أحد أن يمنع فيض التخمينات. وبعد أن أدخلت جنڤييف غرفة خاصة في مستشفى معروف، دعت انجيل الجميع إلى منزلها، فبعض المدعوين لا مكان لديه ليقصده. وهكذا انتهز عدد مذهل من القوم ضيافتها منلهفين للحديث عن الأمر... إذ قد يكون لدى البعض ما يفشيه من أمور مثيرة... كما أنهم سيرون منزل انجيل الشهير بترفه وفخامته.

وبعد أن عاد العريس من زيارة خاطفة إلى المستشفى حيث لم يسمح له سوى ببضع كلمات مع عروسه العتيدة الشاحبة، راح يتسامر مع إشبينات العروس من دون أن يبدو عليه أي قلق لما حدث في هذا النهار الحافل، أو لما أخذ البعض يتهامس به حول حب العروس لابن عمها، بلين كورتلاند. لكن الغريب هو أن أحد لم يدنه، بل اعتبره الجميع، بمن فيهم العريس، الأفضل لجنڤييف.

وإذا كان ذلك صحيحاً، لمَ حصل ذلك إذاً؟ ما الذي جعل جنڤييف وبلين ينتظران حتى هذه اللحظة؟ ربما لنفهم ذلك، علينا العودة إلى الوراء... إلى البداية.

* * *

٣ ـ البداية

كان يوماً رائعاً... يوماً ارتفعت فيه الحرارة وومض السراب، واكتمل عند العصر بعاصفة هبت من الصحراء، وغطت كل شيء بسحب من الغبار الأحمر.

كان يوماً شاقاً حقاً، وتلهّف للاستحمام وشرب كوب من العصير البارد، لكنه واصل العمل بدون كلل ولم يعد إلى بيته إلا بعد غياب الشمس المحرقة.

دخل من الباب الخلفي، لئلا يتسخ المنزل بالغبار الأحمر. كانت غرفة «لالي» مضاءة، فاتجه إليها ليلقي عليها التحية. «ولالي» هي عمته العازبة «يولاليا كورتلاند» التي جاءت إليهم بعد هرب أمه وبقيت حتى تزوج أباه ثانية بعد أقل من سنتين. وبعد جنازة والده، دعا بلين عمته للعودة إلى بيتها السابق، فقبلت والدموع في عينيها. وبخلاف زوجة أبيه وأخته هيلاري، كانت لالي تشاركه شغفه بالأرض ومزرعة المواشي البعيدة، موطن أسلافه. وكانت لالي فتاة برية، كما كان هو، وكما كانت...

جنڤييف.

رقّت ملامحه لحظة بالرغم من مزاجه العنيف المضطرب حالياً نحوها. فقد عادت الذكريات القديمة. جنڤييف... أظرف وأذكى طفلة ساحرة في العالم.

ما الذي جعلها تستحيل كتلة لهب وانفعال مستعدة لتنحداه في كل

لفتة؟ ما الذي حصل لكي تغدو علاقتهما الرائعة التي تأسست على وفاء وعطف واهتمامات مشتركة، بين ليلة وضحاها عنفاً وانفعالاً؟ كان من المفترض أن يكون خشناً، صلباً وليس رجلاً يغضب، ولكن هفوة واحدة من فتاة، تخرجه عن اتزانه.

تباً لها ولتصرفاتها الغرامية الحمقاء! من المحتمل جداً أن يكون آخر شاب أحضرته معها قد ضايقه، فهو لم يكن يعرف كيف يسرج فرساً. جنڤييف وأصدقاؤها! جنڤييف وأمها البغيضة الأنانية «أنجليكا» المعروفة بانجيل، الأسرة كلها لامت انجيل على موت زوجها الأول ستيڤن كورتلاند، والد جنڤييف وابن عم والد بلين المفضل.

كان اختيار العم ستيف، كما كان يسميه بلين من باب التهذيب، سيئاً في ما يختص بالنساء، تماماً كما كان اختيار أبيه. فالمرأتان بعثتا الفوضى في حياة زوجيهما. لكن أنجيل، على الأقل، احتفظت بحق حضانة جنڤييف، وظلت قريبة منهم. أما أمه، «كريستيل» فهربت ولم تعد قط، فاضطر في العاشرة من عمره أن يتعلم، بين ليلة وضحاها، كيف يعتمد على نفسه ويواجه قلباً كسيراً، وبصمت. ذلك أن أباه لم يساعده إذ منذ تركت كريستيل المنزل، لم يأت على ذكر اسمها.

حتى «لالي» لم تكن تجرؤ على معارضة أوامر أبيه، رغم شخصيتها القوية. فراحت تهتم بالصبي حتى أصبح أقرب إليها من داليا زوجة أبيه التي حاولت عبثاً كسب عطفه. وقد لام نفسه لاحقاً، إذ يبدو أنه بعد رحيل أمه، عجز عن حب أي امرأة غريبة. «لالي» هي عمته وتتكلم لغته، أما داليا الجميلة التي تتكلم بنعومة ولطف ونية طيبة فاعتبرها غريبة وعاملها على هذا الأساس لسنوات طويلة. لكنه ما لبث أن ندم على قسوته هذه، لأن داليا لا تستحق ذلك. أما حالياً فتربطهما علاقة جيدة لا يشوبها أي خلاف أو احتكاك في الرأي تقريباً. وكانت جنڤييف هي التي بدأت بكسر الجليد الذي يغلف قلبه، نافخة فيه حب الحياة الذي دمره رحيل أمه. جنڤييف التي لا تُنسى. . . وثار غضبه. تلك الموهوبة في إشعال غضبه.

قالت له عمته رافعة عينيها عن كتابها: «تبدو وكأنك من الهنود الحمر!».

ـ هذا ما كنت لتصبحين عليه لو خرجت في ذلك الغبار الأحمر.

وابتسم ابتسامة كشفت عن أسنان ناصعة البياض وسط وجهه الأسمر المغطى بالغبار.

أومأت لالي برأسها موافقة، ثم تناولت رسالة من على مكتبها وأعطته إياها.

ـ هذه رسالة لك جاءت بطائرة الشحن.

ـ لن أقرأها الآن فهي مجرد تحيات. ممن هي على أيّ حال.

فزّمت فمها: «من «سيئة الذكر». هل تصدق هذا؟».

فضحك ساخراً: «لعلها تطلب مالاً بكلمات حلوة».

وتنهدت «لالي»: «غرام انجيل بالمال لا يوصف. إنها فظيعة، تستغل حبك لجنڤييف».

فهز كتفيه: «إسأليني أنا عن ذلك. المشكلة أن جنڤييف أصبحت تكرهني».

فقالت لالي بسرعة: «دع عنك هذا، فأنت ما زلت فارس أحلامها».

نظر بعيداً والأسف على وجهه: «لم أعد كذلك منذ سنوات لقد أصبحت وقحة جداً».

فذكرته عمته وهي تضع نظارتيها في جيب قميصها: «الفتيات أيضاً يحببن استقلالهن، يا ولدي».

ـ يبدو أنني عاجز عن تقبل الأمر.

نظرت عمته إليه متأملة: «حسناً، أظنك رائعاً. أنا طبعاً متحيزّة لك، ولكنك لست كاملاً. أنت تخاف على جنڤييف، يا عزيزي، وتحاول أن تحميها من كل شيء. دعها تتعلم».

ـ ليس من أمها فلانجيل تأثير سيء عليها، وقد سبق وقلت هذا بنفسك. إنني أكره أن أرى جنڤييف تتبع خطى انجيل.

هزت لالي رأسها الأشيب قائلة: «لقد ورثت جنفييف الكثير من صفات أسرتنا. وهي تفوق أمها ذكاءً وحساسية وكرماً فأنجيل لا تعيش إلا لنفسها».

فقال بلين وقد بدا حزيناً مثبط الهمة: «أعرف هذا، لكن انجيل تشجع جنفييف على الاختلاط بأناس غير مناسبين. إنها تستغلها لأغراض شخصية وما كانت جنفييف لتذهب إلى الجامعة لو لم أتدخل، فقد أرادت أمها إرسالها إلى نيويورك لتمتهن عرض الأزياء».

ـ ما كان هذا ليحدث، يا بلين. لأن جنفييف لا تريد ذلك بالرغم من إصرار أمها. لقد ورثت جنفييف عن أبيها ميوله الفنية، وأعتقد أنها ستصبح يوماً ما رسامة ممتازة.

ـ أوافقك الرأي، فهي بارعة في هذا الفن.

وتنهد بنفاد صبر، ثم أضاف:

ـ يجب أن تركز جنفييف على تلك الناحية من حياتها بدلاً من التسكع مع أولئك الأصدقاء التافهين. أخشى أن تزوّجها انجيل من غني مغفل، فهي لا تضرب حساباً إلا للمال.

ـ صحيح أن المال يسيطر على عقل انجيل ولكنه يا عزيزي لا يعني الكثير بالنسبة إلى جنفييف، فهي لن تتزوج أبداً رجلاً لا تحبه.

ـ تتزوج؟

وبدت على بلين فجأة علامات التعب.

ـ جنفييف بحاجة إلى كثير من النضج ومعرفة الحياة قبل أن تتزوج.

وبدا عليه الغضب، فقالت بمكر: «أظنك تأخذ مسألة اختيار الرفيق المناسب بشكل جدي أكثر مما يجب».

نظر إليها متكاسلاً، ثم منحها ابتسامته الرائعة، الابتسامة التي لا تقاوم: «لا، يا لالي. التفكير في الزواج يصيبني بكآبة بالغة، من هي المرأة التي قد تطيقني؟».

ـ أي امرأة شابة تطلبها، فأنت وسيم للغاية واسمك محترم جداً كما

أنك مفعم بالحيوية كأبيك. ولكن لا بد من القول أنك لست دوماً حلو المعشر رقيقاً، خصوصاً مع جنفييف.

نهض بلين وهو يقول: «لن تفلتي مني في المرة القادمة».

فنادته من خلفه: «لا أقول إنني اعترض على قلة غرورك، اذهب واغتسل. أما رسالة انجيل فهي محفوظة».

***

قرأها أخيراً مع لالي قبل النزول لتناول العشاء، كانا وحيدين في المنزل لأن داليا وهيلاري في إجازة في اندونيسيا، وقد قالت له هيلاري إنها رحلة روحية للتنور. فتمنى أن يكون لذلك بعض التأثير على أخته التي دللتها أمها اكثر مما يجب.

لطالما عرف بلين أن أخته تغار من جنفييف فكلما جاءت هذه الأخيرة لزيارتهم، كانت هيلاري تصاب بنوبات هستيرية من الصراخ والصياح. وكان ولعها المرضي به يزداد عنفاً، فبات من المستحيل أن تصبح الفتاتان صديقتين. وقد حاولت جنفييف ذلك بكل تأكيد حتى أن هيلاري اعترفت بذلك، لكنهما لم تنسجما قط. وكان السبب واضحاً للجميع إذ أرادت هيلاري أن تكون محط الاهتمام الأول والأخير عند أبيها ثم عند أخيها. وكل من يعترض طريقها، كانت تنظر إليه بكره واستياء.

بذلت داليا ما في وسعها لتهدئة الوضع مع ابنتها قبل أن تتفاقم الأمور. واعتاد بلين أن يكون صبوراً للغاية مع أخته على الرغم من طباعه الحادة، ما جعل هيلاري تعتقد أنها على حق.

هو وأبوه عاملا جنفييف وكأنها جزء منهما أكثر منها جزء من العائلة. لكن جنفييف سهلت الأمور على الجميع فعلى الرغم من حرمانها من أبيها المحب للغاية، وحياتها مع أم لا تهتم سوى بنفسها، لم تحاول يوماً أن تلفت الإنتباه أو تسترعي العطف. ولكن إشراقها وحبها لبلين جعلا من الصداقة بين الفتاتين مستحيلا. ربما يوماً ما، عندما تتزوج هيلاري وتكوّن

www.elromancia.com

أسرة ستتخلص من ذلك الشعور بعدم الأمان الذي يتملكها. ولكن، إلى ذلك الحين، كانت هيلاري تتمتع بموهبة حقيقية في افتعال المشاكل.

على الأقل، كان محقاً في قضية رسالة انجيل، فهي كالعادة، تسعى وراء قرض.

وكان يفكر، في أنها لا تبدو كامرأة مخادعة، لكنها مخادعة فعلاً. فهو يعلم تماماً أن انجيل نادراً ما كانت تشتري شيئاً لابنتها، وجنفييف تنفق على نفسها منذ بدأت تعمل. كما أنه هو من اشترى لجنفييف سيارة في عيد ميلادها السابع عشر، ثم الواحد والعشرين، وكذلك المجوهرات من وقت لآخر.

كانت أنجيل، في الفترة التي أمضتها بين الزواجين، ترسل إليه «الفواتير» التي تعجز عن سدادها، فكان يدفع تلك التي تتعلق بالبيت والإصلاحات والإيجارات والتحسينات، حيث أن جنفييف تعيش فيه، ويعيد إليها تلك التي تتعلق بشراء الأشياء الأثرية.

وفي أسفل الرسالة، كتبت (ملاحظة) تسأل فيها إذا ما كان (العزيز) بلين يعترض على حضور صديقها سلوكومب، ذلك الشاب المغرور، إلى جوبيلي بمناسبة إقامة الحفلة السنوية الراقصة، ولم يكن لدى بلين اعتراض ما دامت جنفييف ستأتي معها.

ربما ستكون إحدى تلك المناسبات التي يخف فيها التوتر بينهما. ليلة تكون فيها جنفييف أقل استفزازاً وهو أكثر ليونة وتسامحاً. كان أحياناً يود لو يؤنبها ويضربها ولكن...

فتاة بجمالها كفيلة بأن تثير في نفسه كل المشاعر العنيفة المضطربة، مشاعر يخفيها في أعماقه وكأنها لا تغتفر. فقد كانت قريبته! تلك الطفلة المحبوبة ذات العينين البنفسجيتين الواسعتين والشعر الذهبي، تلك النجمة المتألقة في حياته. ومجرد التفكير في فقدانها كل ذلك يثير أعصابه.

عادت داليا وهيلاري من الإجازة في نهاية الأسبوع التالي. كانتا

متعبتين، ولكن مأخوذتين بما شاهدتاه في زيارتهما وقد أعلنت هيلاري أمام أسرتها، أنها أصبحت امرأة تتمتع (بحالة ذهنية أكثر صفاء). ولكن هذا الإدعاء سرعان ما تهاوى عندما أخبرتهما «لالي»، وهي تقدم الطعام، بأن جنفييف وأمها وصديق أمها الحالي سيأتون إلى الحفل السنوي الذي سيقام بعد أسبوعين.

تنفست هيلاري بحدة واستحالت الملامح المسالمة في وجهها الجميل الذهبي عنفاً عاصفاً كاد يصعقهم جميعاً، وصرخت بحرارة، وقد جمدت الشوكة والسكين في يديها:

ـ ممتاز جداً! إشتريت ثوباً جديداً رائعاً وأتبعت حمية قاسية طوال الرحلة ليناسبني هذا الثوب، وإذا بجنفييف تأتي في النهاية لتبهر الجميع بجمالها.

فقال بلين الذي أمضى يوماً شاقاً: «هذا يكفي. يبدو أنك لم تتغيري كثيراً في رحلتك الهامة. متى ستتخلين عن هذه الغيرة من جنفييف؟ سئمنا جميعنا محاولة مداراتك على الدوام. أنت لديك شخصيتك الخاصة ومميزاتك الخاصة. وأنت تعرفين أنك فتاة جميلة ولكن طريقة تفكيرك تجعل الجميع يظن أنك بشعة للغاية».

ـ أقسم بأنني كذلك.

انفجرت هيلاري بهذا القول، وقد التهبت عيناها القاتمتان بشكل مأساوي.

أخذت داليا كالعادة، تحاول تهدئة ابنتها التي بدأت تخيفها: «لا، لا يا حبيبتي، أنت جميلة حقاً. أنت جميلة وثوبك رائع وستبدين فيه آية من الجمال».

قالت بمزيد من الفظاظة وهي تبعد عن جبينها شعرها البني الناعم: «لا. أنا لست كذلك».

ثم أضافت: «لقد اعتادت جنفييف على خطف الأضواء مني».

واضطرت «لالي» إلى التدخل على غير عادتها، فقالت برقة:

«جنڤييف لا تفعل شيئاً مماثلاً».

فقال بلين لأخته ساخراً: «مرحباً بالمرأة الجديدة».

احمرت وجنتا هيلاري وهي تلقي على عمتها نظرة مسمومة ثم قالت: «ولكن ألا تستطيع جنڤييف أن تبقى في بيتها ولو مرة واحدة؟ وكذلك أمها؟ في كل مرة تفتح فيه فمها أتمنى لو أخنقها. وصديقها... أراهن على أنه فظيع وأنه رجل غني قذر سوقي. لماذا لا يبتعدون عنا ولو مرة؟».

فأجاب بصبر بالغ: «لأنني دعوتهم. لو أنك لست سيئة الخلق بهذا الشكل، للاحظت أن انجيل تضفي كثيراً من التألق على هذه المناسبات، فعندما تدخل من الباب يلتفت الجميع. إنها من الفاتنات الممتازات».

فقالت هيلاري: «وهي جالبة نحس، أما جنڤييف فهي من الخارج جميلة جداً ومشرقة وبريئة. بريئة؟ أراهن على أنها ليست كذلك مع كل الشبان الذين يحومون حولها».

رمق بلين هيلاري بنظرة صارمة قائلاً: «أنا لا أطلب منك مغادرة المائدة غالباً، يا هيلاري. كما أنك ما عدت مراهقة الآن، ولكن يمكنك أن تعتذري حالاً».

لهجة الإرغام في صوته، وملامحه المرعبة، مست عيني هيلاري الداكنتين، فنهضت وقد تملكها الإضطراب والإرتباك واندفعت قائلة بغضب والدموع تتفجر من عينيها: «هيا، تابع كلامك، عليك أن تكون فارس جنڤييف (الأسود)، وبهذا يمكنك أن تدافع عنها حتى الموت».

* * *

بما أن داليا هي رسمياً سيدة «جوبيلي»، كان تنظيم الإحتفال السنوي يقع على عاتقها. ولكن نظراً لعدم مهارتها في التنظيم ونقص اهتمامها بلعبة البولو استلمت لالي هذه المسؤولية عنها. وكانت جنڤييف تتطوع لمساعدة لالي في التنظيم، وتتحمس لمد يد العون، ما خفف بشكل ما من خيبة الأمل التي شعرت بها لالي من داليا وابنة أخيها.

كانت داليا خجولاً بطبيعتها، فهي لا تشعر بالارتياح مع الجموع

وتجد صعوبة في تبادل الأحاديث مع أناس لا تعرفهم. وهي بذلك تختلف تماماً عن والدة بلين الرائعة الجمال، كريستيل. ولعل هذا السبب الذي دفع والد بلين إلى الزواج بها، فإذا كانت كريستيل الرائعة قد تركته في عزلته، فلا بد أن داليا الإنطوائية هي المرأة التي يمكنه أن يثق ببقائها. وقد أحبت لالي داليا من كل قلبها، لكنها كانت تأسف لعدم قدرتها على السيطرة على ابنتها، المتقلبة المزاج.

أصبحت نوبات هيلاري الإنفعالية مزعجة للغاية على الرغم من أنها حاولت أن تحسن التصرف منذ أظهر لها بلين عدم رضاه بوضوح. فذهبت إلى مهبط الطائرات للترحيب بأنجيل وابنتها وصديقيهما.

كانت جنڤييف قد طلبت إذناً لإحضار صديقها معها فأعطي لها. وكانت لالي تأمل أن تسير الأمور على ما يرام. واخترق أفكارها صوت جنڤييف الموسيقي الرخيم وهي تقول: «من الصعب الحفاظ على طراوة العشب ولونه الأخضر في هذا الحر».

كانتا تعملان على تنسيق الأزهار في الغرفة المجاورة للمطبخ.

أومأت لالي، ثم قالت: «أنا قلقة بشأن بلين، فهو يجهد نفسه في العمل».

ووقفت لالي إلى الخلف تتأمل بإعجاب الزهرية الصينية الضخمة التي ملأتها بالورود البيضاء. وتابعت تقول: «بالمناسبة أين صديقك؟».

ـ لقد تركني لبرافق بلين.

وابتسمت مضيفة: «بلين لديه تأثير على الناس. آخر مرة رأيتهما معاً، كان بلين يجول به وبتوبي في أنحاء الحقل، يشرح لهما بعض الأمور. أظن أن أياً منهما لا يعرف لعبة البولو. وبعد ذلك سيأخذهما إلى الإصطبل ليريهما الخيول. لقد قمت بعمل رائع يا لالي».

وأحاطت عمتها بذراعها مائلة برأسها الأشقر بعطف على رأس لالي، قائلة: «لقد اشتقت إليك».

ـ وأنا أيضاً اشتقت إليك، يا فتاة.

www.elromancia.com

وعلى الرغم من أن لالي لم تعتد إظهار مشاعرها، إلا أن تأثراً حاداً علا وجهها الملوكي، مزيج من السرور والحزن في آن، ربما لأنها لم تنجب أولاداً. وتنحنحت بخفة، ثم سألت جنڤييف:

ـ هل أعجبتك الرايات التي وضعتها حول الأراضي؟

ـ تبدو رائعة.

كانت جنڤييف تتفهم لالي جيداً، ولهذا عادت إلى عملها.

ـ وكذلك طريقتك الجديدة في تنظيم الموائد والكراسي تحت الأشجار، تبدو كمطعم في الهواء الطلق. القاعة الكبرى رائعة هي أيضاً، لا بد أنك انشغلت كثيراً، خصوصاً في غياب داليا وهيلاري.

ـ كنت مسرورة بانشغالي. لقد غيّرت رأيي مرتين بالنسبة لزينة القاعة. هل حقاً أعجبتك؟

ـ طبعاً أعجبتني.

وابتسمت جنڤييف مشجعة، ثم أضافت: «ذوقك مرهف يا لالي. كل شيء رائع ومثير وكولين يكاد يطير من الفرح، فهو لم يحضر إلى البراري من قبل. لقد أحب كل ما رآه».

سألتها لالي خائفة في داخلها من كلمة (نعم): «هل علاقتك بكولين جادة؟».

فأجابت جنڤييف بذلك بمرح: «نحن متقاربان نوعاً ما، وأنا أستمتع فقط، يا لالي، كولين سهل المعشر، ومرح جداً كما أنه يعرف كيف يتقرب من انجيل».

فقالت لالي تعنفها ضاحكة: «لا تكوني سخيفة».

ـ في الواقع، أمي هي التي عرفتني بكولين، وأظنها وعدته بالموافقة. هو ابن جورج غاريت، ملك الشحن، أتعرفينه؟

بادلتها لالي نظرة جافة، وردّت: «هذا ما خمنته. لا تدعي أمك تدفعك إلى شيء لا تريدينه يا فتاتي العزيزة، فهي ماهرة بذلك. إنها واسعة الحيلة بالفطرة».

فهزت جنڤييف رأسها بولاء بالغ: «إنها لا تريد لي سوى الخير، يا لالي، ولكن بطريقتها الخاصة. إنها لا تفهم حقاً أننا مختلفان تماماً، ولا بلين يفهم ذلك أيضاً».

توقفت لالي عما كانت تفعله، متلهفة إلى إداء مهمتها: «كوني متسامحة مع بلين في هذه العطلة الأسبوعية، أتسمعين؟ لديه ما يكفي من المشاكل مع هيلاري».

ـ لالي، عزيزتي، سأبذل ما في وسعي. أما هيلاري، فستهدأ مع الوقت. الحياة هنا تزعجها، فهي ليست فتاة أدغال.

ـ في الحقيقة هي لم ترث أي شيء من شخصية أبيها وأظن أن أمها تتسامح معها كثيراً.

قالت لها هذا هامسة مائلة برأسها إليها.

فقالت جنڤييف تلتمس لها عذراً: «إنها وحيدتها».

ـ ما الذي تتهامسان به؟

جاءهما هذا الصوت المألوف من عند العتبة. فالتفتت جنڤييف بسرعة وقالت: «مرحباً».

منحها ابتسامته الرائعة وهو يتقدم داخل الغرفة برشاقته الطبيعية المميزة. كان يلبس قميصاً أبيض يحتضن صدره الواسع وذراعيه القويتين وبنطلون جينز ضيقاً بدا فيه جذاباً إلى أقصى حد.

ـ افتقدناك على مائدة الفطور.

ـ ذهبت في نزهة على الحصان. ألم يخبرك أحد؟

ـ أخبرني العامل «كوليبوب» أنك أخذت الحصان «بوكسر».

فقالت برقة فائقة متذكرة طلب لالي بالتروي معه بالحديث: «لا بأس في ذلك، أليس كذلك؟».

ـ لا أدري. إنه صعب قليلاً. أنا أعرف أنك فارسة جيدة فأنا علمتك جيداً. لكنني أفضل لو تكتفين بركوب «أورورا» أثناء هذه الزيارة، اتفقنا؟

اقتربت منه بخضوع: «طلباتك أوامر».

www.elromancia.com

ـ أحقاً؟

مضت لحظة رأته ينظر فيها مباشرة في أعماقها فاحمرّ وجهها: «طبعاً».

ـ أنوي أن أذكرك بهذا في أحد هذه الأيام يا بنفسجية العينين.

ـ أنا واثقة تماماً من أنك ستفعل. والآن، أين تركت كولين وتوبي؟

فبدت السخرية في عينيه الفضيتين: «كولين وتوبي! الصديقان الحبيبان! أنا واثق من أنني أتذكرهما».

ـ أؤكد لك أنهما متأثران جداً بك وبطريقة حياتك.

ـ أنت لا تكذبين علي، أليس كذلك يا جنفييف؟

قال هذا بشبه ابتسامة تكشف عن اسنان ناصعة وأضاف: «على كل حال لم يستطع توبي أن يغيب أكثر من دقيقة فقد أتت انجيل بحثاً عنه. أما كولين فقد سمحت له بأن يأخذ واحدة من سيارات الجيب إذ أراد أن يلقي نظرة على الأنحاء. لكنه وعد بألاّ يبتعد كثيراً، لا أريد أن أضطر للبحث عنه».

استدارت بجسمها الرشيق لتنظر إليه مباشرة: «هل أنت واثق؟».

فقال متحدياً: «بماذا تتهمينني؟ طبعاً أنا واثق. لقد باتت وظيفتي العناية بأصدقائك».

وانحنى يشم عبير خليط من أزهار الصيف.

فقالت لالي مزهوة: «هذا من صنع جنفييف، إنها فنانة أصيلة».

ـ بل من صنعنا نحن الاثنتين معاً.

ووضعت جنفييف ذراعها حول خصر لالي.

ـ فكرت في أن أضع هذه الباقة في يد تمثال السيدة الرخامي القائم عند مدخل الردهة، ما رأيك؟

ونظرت إلى بلين تسأله رأيه، وهي تشير إلى باقة فانتة صغيرة منسقة من الورود الصفراء الموشحة باللون الأخضر.

ـ لِمَ لا؟ على السيدة أن تتلقى دوماً أزهاراً من المعجبين. دعيني أفعل

ذلك.

ونظر إلى لالي وابتسم، قبل أن يسأل: «أظنني سأقع أرضاً عندما أرى الفاتورة؟».

ـ لا تقلق يا عزيزي، فقد قطعنا معظم هذه الأزهار من حديقة البيت.

فقال مقطباً حاجبيه: «ولكن أين هيلاري؟ لقد طلبت منها أن تساعدكما».

ـ لا بأس. لقد استطعنا أنا وجنفييف ترتيب كل شيء.

نظر بلين إلى ناحية جنفييف: «أنا ذاهب إلى القاعة الكبرى، أتودين مرافقتي؟».

ـ بكل تأكيد، ولكن لالي لا تستطيع أن تعد كل هذه المزهريات وحدها.

ـ لن نطلب منها القيام بذلك. سأقوم أنا بذلك قبل ذهابنا.

فقالت لالي بشغف، متلهفة إلى أن يمضيا بعض الوقت معاً: «أصغيا إلي، لديّ روبي والفتيات ليساعدنني».

ثم أضافت: «يمكنكما الذهاب. استمتعا بوقتكما وتذكري ما أوصيتك به، يا جنفييف».

* * *

بعد ذلك بلحظات، كانا في الخارج تحت أشعة الشمس. ابتعدا عن البيت الريفي الرئع واتجها نحو ما تسمّيه الأسرة (القاعة الكبرى) وهي مبنى يستعمل للإجتماعات التقليدية والرقص والحفلات.

سأل بلين وهو ينظر إلى جانب وجه جنفييف الجميل: «ما الذي أوصتك به لالي؟».

ـ إنه سر!

ووضعت إصبعها على شفتيها وهي تكاد تركض لتجاري خطواته.

ـ وسأخبرك أنا أيضاً بسر، وهو إنني أراهن على أنها أوصتك بأن تكوني رقيقة معي.

www.elromancia.com

ـ هذا ما أريده.

ومنحته ابتسامة صغيرة متكلفة تستفزه بها.

ـ عندما تشائين لا أحد يضاهيك حلاوة ورقة.

ابتسمت له بطريقة تدرك تأثيرها، ثم قالت: «أحبك عندما لا تكون متعالياً. والآن، ما رأيك في كولين؟ أخبرني. أنا متلهفة لأن أعلم».

تثاءب ساخراً: «من؟».

ـ أرجوك..

وألقت عليه نظرة جانبية ساخرة فضحك: «لا بأس به. هو حسن السلوك. وطبعاً أفضل من أصدقائك الآخرين».

ـ في حال كنت مهتماً، فالأمر بيننا ليس جدياً.

أما لماذا قالت هذا بينما هي وكولين صديقان منذ أشهر، فهذا ما لم تشأ أن تعرفه.

ـ لم أكن أفكر في ذلك.

ونظر إليها بعينين ملتهبتين.

ـ إسمع. لا أظنك ستوافق على أي شخص أريد أن أتزوجه.

قالت هذا متحدية، مدركة، بشيء من الإضطراب، أنها لا تستطيع هي أيضاً أن تحتمل التفكير في «سالي» كزوجته العتيدة.

فتمتم يقول بجفاء: «أظنني قمت بدور الأخ الأكبر أكثر من اللازم».

ـ على كل حال، كولين مجرد صديق حالياً.

وراح قلبها يخفق وكأن ما تقوله كذب.

ـ أنا أعتبر كلمتك عهداً بذلك.

نظرت إليه، وبالكاد استطاعت مقاومة وسامته. فابتسمت له ببهجة بالغة قائلة: «لنكن صديقين، كم كنت متلهفة إلى هذه العطلة الأسبوعية».

فتمتم، لكن ملامحه لم تكن واضحة: «وأنا كذلك».

كادا يصلان إلى القاعة عندما دوى صوت طائرة تحلق حول المنزل

الريفي استعداداً للهبوط. وكانت الطائرات تنقل الضيوف طيلة فترة الصباح.

ـ هل أعرف القادمين؟

فقال وهو يظلل عينيه بيديه: «تعرفينهم بكل تأكيد. إنهم آل كاميرون. أظنهم جاؤوا جميعاً».

ـ رائع. لم أرهم منذ وقت طويل. رباه.

وسكتت فجأة وأخفضت رأسها عندما هب هواء قوي من بين الأبنية الخارجية، وغطت عينيها بربطة شعرها إذ دخل الغبار فيهما.

وعلى الفور أستدار بلين نحوها.

ـ ثمة شيء في عيني.

ـ دعيني أراهما. لا، لا تدعكيهما.

قادها إلى تحت مظلة كبيرة، وأخرج من جيبه منديلاً، قائلاً: «هذا نظيف تماماً، لا تتحركي، يا حلوة. إرفعي رأسك. وانظري إلي».

ـ لا أستطيع.

ورمشت بعينيها، خائفة من فكرة حضور الحفلة بعين حمراء.

ـ تشجعي.

ورفعت وجهها متسعة العينين، محاولة التركيز.

ثنى بلين منديله الأبيض وأخذ يبحث برفق: «لقد وجدتها».

أعلن ذلك راضياً وهو ينظر إليها. وبشكل يتعذر تفسيره، توتر جسده بأكمله كأوتار آلة موسيقية فشعرت جنفييف بهذا التغيير المفاجيء.

ما الذي يحدث؟ بقيت مكانها لحظة بينما أخذت ترمش بعينيها.

ـ هذا أفضل.

ثم فتحت عينيها لكي تبتسم له وإذا بها تواجه نظرة تتألق بشكل غريب مما حيرّها.

ـ بلين؟

www.elromancia.com

وكان صوتها قلقاً مرتجفاً كصوت طفلة. ساد صمت حاد متوتر بعث القلق في نفس جنفييف، فتسارع كل نبض في جسدها، وتسمرت عيناها عليه. بقيا واقفين بصمت. وبدا العالم كله قاحلاً، لا أحد فيه سواهما. وهمست وهي ترتجف: «هل أخبرك شيئاً؟ أحياناً تبدو مخيفاً جداً».

ـ مثل الآن؟

كادت تقع أرضاً لشدة الصدمة التي تملكتها فبلين الذي تعرفه تغير وأصبح عاطفياً منتشياً. أخذ النبض يتسارع في عنقها وسرت في كيانها مشاعر متأججة. وأظلمت عيناها البنفسجيتان واحمرت وجنتاها.

يا إلهي! أدرك أن عليه الابتعاد عنها، فهي ليست جاهزة، لكن عواطفه أذابت إرادته وشوشت قدرته على التفكير.

كيف يتمالك نفسه أمام جمالها الذي يشبه نسيج الأحلام وشعرها الكثيف الذهبي المنسدل حول كتفيها وعينيها البنفسجيتين اللتين تتوسلان إليه ألا يغامر ويغير كل شيء في لحظات ويقلب حياتها رأساً على عقب.

راح ينظر إليها بعينين ملؤها الحب، عينين تحويان كل حنان العالم ودفئه. وكانت هي تبادله النظر بعينين معذبتين مسحورتين وقد تبدد كل اعتدادها بنفسها ورباطة جأشها. فقد نقلها إلى مكان آخر أشبه بجنة عدن، بواحة خضراء منعشة. وفي تلك اللحظة، تمنى بلين لو يطير بها إلى مكان بعيد خالٍ من كل أنسي.

لقد كان تأثيرها عليه مذهلاً.

في تلك الأثناء، وصلت هيلاري وسالي إلى القاعة الكبرى. وتسمّرتا من الدهشة عندما رأتا جنفييف جامدة وعيناها معلقتان ببلين، وكأنها لا تستطيع الفرار. فبديا مغلفين بسحب من الدخان.

صرخت سالي المسكينة وكأن النار تحرقها، لكنها لم تستطع تحويل نظراتها. وتشبثت بيد هيلاري متوسلة: «فلنعد».

فنظرت هذه اليها بابتسامة خطرة: «لا تكوني حمقاء. ألا تعلمين أن جنفييف تحاول التقرب إليه على الدوام؟».

ـ ماذا؟

وارتجف صوت سالي. لطالما أحبت جنفييف وكانتا منسجمتين تماماً. فقالت هيلاري باشمئزاز:

ـ جنفييف فتاة عابثة مثل أمها. وهذا لا يعني لها شيئاً، فهي شبه مخطوبة للرجل الذي أحضرته معها.

ـ أحقاً؟

كانت سالي مغرمة ببلين وتشعر بأنها قد تحظى بفرصة معه. فتنفست بصعوبة، وقالت:

ـ إذا أردت رأيي، جنفييف هي التي يجب حمايتها.

سألتها هيلاري بحدة: «ممن؟».

فأجابت: «من بلين، يبدو وكأنه سيخطفها عن الناس جميعاً. لا يبدو معي بهذا الشكل أبداً».

فأجابت هيلاري عابسة: «أنت لا تفهمين بلين. إنه يحب السيطرة وما ترينه الآن لا يعني شيئاً. أنت الفتاة التي يريدها بلين. أما جنفييف فهي قريبته ليس إلاّ».

كان هذا بعيداً عما استنتجته سالي، ففكرة أنهما مجرد أقرباء لا يجوز زواجهما، قد تغيرت الآن، إذ يبدوان كعاشقين. ولم تستطع سالي أن تفهم حقاً. وشعرت وكأنها أصيبت بانهيار عصبي..

* * *

خرج الفريقان إلى الحقل حيث استقبلا بالهتاف الذي ارتفع في الصحراء ما جعل الطيور تجفل.

وكان هذا العرض يناسب جوّ الإثارة والبهاء الذي ساد احتفال نهاية الأسبوع.

في الجولة الأولى، كان بلين يمتطي فرساً أصيلة يتألق جلدها الكستنائي في أشعة الشمس، وتميز فريقه بسترة حمراء وسوداء. أما الفريق الآخر، فقد اتخذ اللون الأخضر والكحلي.

لم تستطع جنڤييف أن تحوّل نظراتها عن بلين رغم أنه سبق لها أن شاهدته يلعب مرات لا تحصى. كان رائعاً على صهوة الجواد ومثالاً حقيقياً للرجولة في جرأته واندفاعه وسرعة تفكيره وخشونته، عقلياً وجسدياً.

- يا إلهي... هؤلاء الرجال رائعون حقاً!

قال كولين هذا وهو يصفر رافعاً حاجبيه، ملتفتاً إلى جنڤييف باسماً بينما جلست بارتياح على مقعد مستطيل في فسحة باردة منعشة تحت الأشجار، وسلة الطعام والعصير بجانبهما.

سألها بدون أي حسد:

- لماذا لم تخبريني بأن لابن عمك مثل هذه الميزات الرائعة؟ أمثاله نادرون. يبدو وكأنه ممثل سينمائي يلعب «البولو» في أحد الأفلام، ألا تسمعين كل الفتيات يهتفن باسمه؟

فقالت جنڤييف بجفاء، عالمة بأن هذه هي الحقيقة: «لكنه لا يسمعهن. صدقني».

- مكانه، لما استطعت أن أغض الطرف عنهن.

وأخذ كولين يعب الهواء المشبع بعبير شجر «الأوكاليبتوس»، ثم تابع يقول: «هذه هي الحياة! فتاة رائعة، سلة طعام ولعبة جميلة كالبولو، لم أظن أني سأستمتع إلى هذا الحد. لا بد أنه أمر رائع أن يحكم المرء مملكته الخاصة. وهذا حسبما أرى، ما يفعله ابن عمك».

كانت عينا جنڤييف مظللتين بنظاراتها الشمسية، فقالت: «إنه يقوم بعمله بجدية بالغة، يا كولين. إن «جوبيلو» هي، كالمراكز الشهيرة الأخرى، إنها تاريخنا الرائد».

فقال كولين باستمتاع بالغ: «كان عليّ أن أرى ذلك لكي أصدق.

وذلك البيت الريفي! قريبك فارس ممتاز، لا بد أنه ولد على سرج حصان».

- هذا صحيح، لكنهم ليسوا كلهم برشاقته في الركوب. سترى مدى مهارته عندما يبدأ اللعب. بلين وحصانه يتحركان وكأنهما شخص واحد. الإنسجام بينهما كلي، وهذا لا يحدث بين ليلة وضحاها. فهو يمضي الكثير من وقته في تدريب جياده. مما يتطلب الكثير من الجهد.

فقال كولين: «يبدو حصانه أصيلاً».

- هو فعلاً أصيل، وكذلك معظم الجياد الأخرى. أما بلين فيدرس بشكل أفضل من معظم اللاعبين. إنه عظيم في أسلوبه.

مع الجياد ومع النساء... فكرت في ذلك وقلبها يخفق.

- وهذا ما جعله يفوز بالكأس، الفريقان ممتازان لكن أسلوب بلين كان أفضل.

فالتفت إليها مدهوشاً.

- ولماذا هذه الآهة؟ بدت وكأنها صدرت من أعماقك.

فوجدت نفسها تعترف، قائلة: «بلين يتصرف أحياناً بقسوة».

ففكر كولين قليلاً ثم قال: «لاحظت ذلك. لكنه كان لطيفاً معي».

- لقد أعجبته.

فأشرق وجه كولين بابتسامته الجذابة: «هذا عظيم. أنا واثق من أن علاقتنا لن تتطوّر إلا إذا كان ابن عمك إلى جانبنا».

كانت جنڤييف ترتدي سروالاً من الكتان مع قميص وردي اللون، وقد وضعت على رأسها قبعة قش مزينة بالأزهار.

حدق إليها قبل أن يسألها: «ما الذي ستلبسينه الليلة للحفلة؟ ثوباً أنيقاً جداً كما أظن؟

- ثوب من تصميم «كوليت دينيغان».

ابتسم ابتسامة عريضة وهو يستلقي إلى الخلف، ثم قال: «أعترف لك يا جنڤييف أن ما من أمرأة تؤثر بي كما تؤثرين أنت بي. أنا أعشق الجلوس

www.elromancia.com

معك، وبدأت أشعر أنني أريد أن أبقى معك طوال الوقت».

* * *

في الاستراحة بقيت جنڤييف بعيدة تماماً ولم تتقدم من بلين للتكلم معه كما اعتادت منذ سنوات، وإنما بقيت تشاهد العرض من مكانها المظلل تحت الأشجار.

كان بلين مشغولاً بتغيير سترته مبرزاً قامته الرائعة وجسمه الجميل، من دون أن ينتبه إلى ضحكات الفتيات وتأوهاتهن المنخفضة في أنحاء الحقل.

التقى كولين أحد زملاء الدراسة، فراح يتحدث معه، وهكذا خلا لها الجوّ لتجلس بهدوء وتحاول فهم ما حدث منذ ساعات قليلة. وأياً كان ما حدث، فقد غيّر العالم من حولها. كانت تظن أنها تحب كولين، أو تكنّ له الحب كما تفهمه، أما الآن فقد اختلط الأمر في ذهنها بشكل هائل.

في الجهة المقابلة من الحقل، رأت جنڤييف سالي فينويل وقد توهج وجهها سروراً، تتقدم من بلين وتهنئه.. ربما لأن سالي وهيلاري رأتا ذلك المشهد المربك أمام القاعة الكبرى حيث لم تستطع لا هي ولا بلين، السيطرة على مشاعرهما. تمكن بلين من المحافظة على رباطة جأشه بحيث عاد طبيعياً في لحظة، لكنها هي بقيت واقفة وقد دار رأسها، فيما سالي وهيلاري تتقدمان نحوهما.

كانت عينا هيلاري تشعان بتلك الرسالة المعتادة التي تعني (أنا أكرهك). أما سالي الطيبة جداً في الواقع، فحاولت أن تبادرهما بابتسامتها الودود المألوفة. لكن جنڤييف علمت أنها، في أعماقها، مذعورة، فسالي تمضي وقتاً في ذلك المكان أكثر من أي شخص آخر، وهي تعلم ماذا تريد من الحياة. وما تريده هو بلين كورتلاند.

استؤنف اللعب من جديد، وعاد كولين، ووقف خلف جنڤييف.

ـ هل افتقدتني، يا حبيبتي؟

ـ كلا، على الإطلاق.

ونظرت إليه إلى الخلف باسمة، ثم أردفت: «فأنت لم تغب سوى عشر دقائق».

ـ لو كنت تحبينني لوجدت أنه وقت طويل بما يكفي.

* * *

www.elromancia.com

٤ ـ محطّمة القلوب

كانت السماء مرصعة بملايين النجوم المتألقة فوق سطح المنزل الريفي. أما في الداخل، فعجّ المنزل بالناس الذين أخذوا يتمايلون على أنغام الفرقة الموسيقية.

شق بلين طريقه بين الجمع، وهو يحيي كل من يصادفه.

أي رجل عاقل يعترض على أن يتودد إليه سرب من الفاتنات اللاتي لا شك في مشاعرهن نحوه. كلهن رهن إشارة من إصبعه، لكن ذلك لم يشعره بالبهجة بل بنوع من المرارة والشوق إلى تلك المرأة التي يعلم أنها وحدها تملأ قلبه.

تابع بلين طريقه. عبر غرف الاستقبال الرئيسية، وقد سره أن يبدو المنزل في حلته الأبهى. يتساءل عن مكان جنفييف، فهو يريد أن يقود الجميع إلى القاعة الكبرى.

لم يكد يصل إلى الردهة حتى سمع صوت رجل يقول بسرور بالغ: «هذه هي جنفييف».

فتسارعت خفقات قلبه. ورفع بصره إليها.

كانت واقفة في أعلى السلم الكبير، ووجهها الجميل يتألق انتعاشاً وهي تبتسم وتلوّح بيدها، وتشعّ سروراً وحماسة.

أخذ يتساءل عمّا دفعه ليتأمل جنفييف من رأسها حتى أخمص قدميها بينما لم يكد يلحظ ما تلبسه النساء الأخريات. كان شعرها الرائع منسدلاً

على كتفيها كما يحبه هو، وثوبها يماثل لون عينيها فبدا رائعاً بقماشه الشفاف المطرز بالخرز اللامع. فتسارعت أنفاسه وشعر بزهو بالغ، فهي فتاته جنفييف. أراد أن يأخذها ليخفيها عن أنظار الرجال جميعاً. يالله، كاد يحيّره ما يشعر به من ضعف ووهن تجاهها.

أدركت جنفييف، وهي تنظر إلى ذلك البحر من الوجوه المتألقة الباسمة، أنها لم تكن تريد سوى نظرات شخص واحد. ورأته فجأة واقفاً قرب الباب المؤدي إلى غرفة الجلوس. ذلك الرجل الغريب في وسامته وشخصيته القوية. وبدت على وجهه تلك النظرة السافرة التي رأتها عصر هذا اليوم..

آه، رباه. لم تخطىء فهم نظراته، لا الآن ولا قبلاً. ومرة أخرى، أخذ رأسها يدور وقد ملأتها تلك النظرة بالتنبه والبهجة، فوجود بلين يوقظ مشاعرها. كانت جنفييف تبادله نظرات الإستفهام، شاعرة بوجهها يتوهج. وأياً كان ذلك العطف الذي جمعهما منذ سنوات فإن شيئاً مختلفاً قوياً قد ظهر الآن. ما هو؟ وشعرت جيني بقلبها يخفق..

وابتسم. ابتسامته تعني فقط أنه مزهّو بها، وعندما أخذت خفقات قلبها تهدأ، والذعر الذي تملكها يتبدد، انتابها شعور عميق بخيبة الأمل. خيبة أمل من ماذا؟ في أي لحظة بالضبط تغيّرت نظرتها إلى بطل طفولتها؟ هو ما زال بطلها على أيّ حال، لكنها لا تستطيع أن تتصارع مع كل هذه المشاعر الخداعة التي كانت تتملكها. ما لم يحدث قط، لن يحدث أبداً، فهو يعبث معها، لأن لديه ميلاً إلى القسوة والخيلاء.

نزلت جنفييف الدرجات المكسوة بالسجاد العجمي مستجمعة دفاعاتها ضد ذلك الشخص القوي المسيطر في حياتها، ابن عمها المتغطرس بلين. كانت لا تزال تشعر بالدوار، لكنها رفعت رأسها عالياً. ليست المرة الأولى التي يخطر لها أن بلين خطر وعندما رأت ذلك التعبير البادي على ملامح الشابات المحيطات به، أدركت أن افتتانها به يزداد.

عندما وصلت إلى أسفل السلم، كان هو قد شق طريقه بين الجمع،

www.elromancia.com

ثم ابتسم لها قائلاً: «الآن يمكن للاحتفال أن يبدأ».

كانت عيناء الفضيتان تتألقان بشيء لم تجد هي الشجاعة لأن تسميه. فقالت متصنعة العذوبة والعطف الأسري كأي ابنة عم: «تبدو رائعاً».

فقال بلهجة مطاطة: «كنت أجمل فتاة صغيرة في العالم ولا تزالين».

وهمست برقة بالغة وهي تميل برأسها الذهبي الشعر نحوه: «جزء مني يحبك، وهو الجزء الأفضل، لذا كن لطيفاً معي هذه الليلة».

- وأنت حاذري على سلوكك كذلك.

رافقها نحو الباب، داعياً الجميع إلى أن يتبعوهما إلى القاعة الكبرى.

وعلى الشرفة، جاء كولين بسرعة وهو يهتف: «جنڤييف، عزيزتي. ظننتك لن تنتهي أبداً من ارتداء ملابسك. ما زلت انتظرك، تبدين رائعة».

وقف كولين أمامهما لكن بلين لم يتنازل له عن رفقة جنڤييف. كان في اعتدال كتفيه العريضتين وملامحه المتسلطة ما يشير إلى أن كولين لن يحصل على (صديقته) قبل فترة. وفي ابتهاج بالغ سار كولين بجانبهما وهو يشكر بلين مرة بعد مرة على لطفه، فهو يستمتع بوقته إلى أقصى حد.

عند الساعة العاشرة، كانت القاعة تعجّ بالراقصين. وراحت جنڤييف تتأمل الصور المعلقة على جدرانها.

- إنه بطل حقيقي، أليس كذلك؟

قالت «لالي» هذا وهي تلتفت إلى جنڤييف، مشرقة الوجه لنجاح الحفلة.

- لا شك في هذا.

وتأبطت جنڤييف ذراعها بحرارة، ثم قالت: «الجميع الآن يمضي وقتاً ممتعاً... أليس ذلك رائعاً؟».

- أنا مسرورة للغاية. حتى صغيرتنا هيلاري تبدو سعيدة. لكنني أظن أن ثوبها غير ملائم. لا أدري لماذا، مع أنه رائع الجمال.

فقالت جنڤييف: «ربما يلائم امرأة محنكة. لكنها تبدو جميلة فيه. كما أنها في مزاج جيد».

فقالت لالي بشيء من الحدة: «عليها أن تكون هكذا دوماً، نظراً للدلال الذي تحصل عليه».

فقاطعتها جنڤييف: «تلك هي أنجيل».

ولوحت بيدها لأمها التي مرت برفقة توبي سلوكومب.

أثارت أنجيل المشاعر عند ظهورها بثوب من تصميم «شانيل» مزين بزهرة كاميليا، وعلى وجهها ابتسامة ساحرة.

أخذت جنڤييف ولالي تنظران مسرورتين في أنحاء القاعة. فبدت النساء شاكرات لهذه الفرصة التي سنحت لهن لارتداء ملابس جميلة تزيد من جمالهن في عيون رجالهن.

في الجهة المقابلة، كانت سالي فينويل تضحك مسرورة برفقة بلين. لا بد أنه قال لها شيئاً مسلياً لأنها ضحكت ببهجة. كان صدى ضحكها واضحاً بين همهمة الأحاديث وأنغام الموسيقى. مهما كان ما فسّر به ذلك المشهد المربك الذي شاهدته هي وهيلاري، فقد بدت سالي مستعدة لتصديقه، أو لعل هيلاري أقنعتها أن الذنب ذنبها هي. بدا بلين مسترخياً، ولعله يخبر سالي كم تبدو رائعة، وهذا صحيح فعلاً فثوبها الحريري الأزرق يُظهر جمالاً يلفت أنظار الرجال دون استثناء.

التفتت المرأتان عندما عاد كولين حاملاً الشراب البارد الذي طلبته جنڤييف.

- خذي، يا جميلة.

وابتسم كولين لجنڤييف بزهو وسرور بالغين، وهو يفكر في جمالها. وتذكر أن يلتفت إلى لالي ليسألها، بتهذيب: «هل أحضر لك شيئاً، يا آنسة لالي؟».

فهزت رأسها: «لا، شكراً يا عزيزي، يجب أن أذهب لأتفقد العشاء».

ثم أومأت مبتسمة وذهبت بحثاً عن صديقة أرادت أن تتحدث إليها. وكانت القاعة تعجّ بالراقصين الذين بدوا أنهم لن يملّوا قبل الصباح.

www.elromancia.com

- إنك رائعة، أيتها الأميرة.

فنظرت إليه ضاحكة: «أتعلم أنك اكتسبت لهجة أبناء البراري المطاطة؟».

- خصيصاً من أجلك يا عزيزتي.

جالت نظراته عليها، مستمتعاً بأنوثتها وشعرها الذهبي الرائع الذي انسدلت خصلاته على كتفيها، وهو يقول: «هذه الرحلة القصيرة كانت مدهشة بالنسبة إليّ. فقد جعلتني أفهم أموراً كثيرة».

فسألته بلهجة عادية: «مثل ماذا؟».

- مثل كيف سيكون الزواج من فتاة دافئة القلب، رائعة الجمال مثلك.

وشعر كولين بالإثارة تتملكه وهو يقول ذلك، لكن جنڤييف لم تكن واثقة مما إذا كان جاداً أم لا.

- لا بد أنك تمزح. أليس كذلك يا كولين؟ ظننتك لا تود الزواج؟ أكثر الناس يعتقدون أن كولين غاريت مجرد شاب عابث.

- ربما في الماضي. أما الآن... لا أستطيع أن أتخلى عنك.

وأصبحت نظراته رقيقة جادة. وفي تلك اللحظة اعتقد أنه غارق في الحب، فهو لا يتذكر أن شعوراً مماثلاً تملكه من قبل.

وعلى مسافة بعيدة، كانت هيلاري تقف لحظة مع أخيها بلين، فشعرت وكأنها حصلت على فرصة ذهبية.

- لقد وقعت جنڤييف أخيراً في الحب. لم أظن أن هذا سيحدث، فهي تحب العبث.

بدا الشرود على بلين، وتبع نظراتها كما فعل معظم الحاضرون، ثم سألها: «هذا شيء تكررينه دوماً يا هيلاري، أليس كذلك؟».

ونظر إلى بحر الراقصين حيث كان كولين وجنڤييف غافلين عن كل ما حولهما.

وأضافت هيلاري بغبطة بالغة: «ولكن، هذه المرة، يبدو أن كولين كسب حبها. هل رأيت من قبل شخصين مشغولين ببعضهما البعض بهذا

الشكل؟ أخبرتني جنڤييف أنها تهتم كثيراً لأمره».

ورفعت بصرها إلى بلين لترى ردة فعله فبدا عدم التصديق على وجهه.

- متى قالت لك هذا؟ لا أظنكما أمضيتما معاً أكثر من خمس دقائق.

- وما أدراك؟

وبقي صوتها حلواً مقنعاً، حين أردفت: «أنت في معظم الأوقات، غير موجود معنا. أخبرتني ذلك عصر هذا اليوم بعد المباراة».

- إنهما صديقان ليس إلاّ.

تكلم بشكل حاسم، حاسم أكثر مما يجب بالنسبة إلى هيلاري المصممة على تفريقهما. تشبثت بذراع أخيها ووقفت على أصابع قدميها تهمس له: «يمكنني أن أخبرك أنها تحاول جاهدة أن تقنعك بهذا، ولا أدري سبب ذلك بالضبط. وقد حذرتني في الحقيقة بأن ألزم الصمت. يمكنك أن تستنتج أنها لا تريدك أن تعلم هدفها، فأنت كثير الإعتراض. ولن تخبرك قبل أن يفوت أوان قيامك بأي شيء لمنع ذلك. على كل حال، هو يعجبني، ويريد جنڤييف بقوة. هذا واضح جداً».

وفي اللحظة التالية، جاء شاب يدعو هيلاري للرقص، فذهبت معه إلى الحلبة شاعرة بالنصر للإنجاز الذي حققته. وستنتهز كل فرصة تسنح لها للتفرقة بين بلين وجنڤييف.

* * *

انتظر حتى ترك كولين جنڤييف لحظة قبل أن يتصرف، فاقترب منها يسألها:

- أتراك تتجنبينني ام أنا أتخيّل ذلك؟

- ربما فعلت هذا حقاً.

- لم تشأ أن تكذب عليه.

- لماذا؟

وخرج بها إلى حلبة الرقص، عالماً أنها غلطة.

www.elromancia.com

ـ أنت تعلم لماذا، تباً لك. لا يمكنك أن تلومني.

قربه منها جعلها تشعر بضعف كبير، ورغم أنها بدت بالغة البرودة، إلا أن مشاعرها كانت مضطربة. أحسّت أنها على شفير الهاوية. أي لعبة يلعبها بلين؟ المذلة ستقتلها إذا حاول فقط أن يثبت سيطرته عليها، ألم يعلم بعد أنه مزق قلبها؟

وقفا بصمت لحظات، وشعرت بنفسها ترتجف، فانفجرت تقول بشكل عفوي: «لا أدري إذا كنت أستطيع احتمال هذا».

كان هذا كشفاً بالغاً عن مشاعرها، لكنها لم تستطع السيطرة على نفسها.

نظر إليها بحدّة: «تحتملين ماذا؟ إياك أن تخدعيني، يا بنفسجتي».

هذا اللقب القديم الذي كان يطلقه عليها أيقظ مشاعر كثيرة معقدة في نفسها.

ـ هذا لن ينفع، أليس كذلك؟

ـ لا، ما دام الجميع هنا يستمتع بوقته. لماذا أنت خائفة من التحدّث إليّ؟

كان ماهراً في التنقل... يبدو طبيعياً، فقالت: «أنا مستاءة، هذا هو السبب».

اعترفت بذلك وهي تحدق من فوق كتفه.

ـ أحقاً؟ كنت سأقول العكس. فهذا المشهد الغرامي الصغير مع كولين كان متعة للعين.

فأجابته بقنوط: «لعله الرجل الذي أحتاجه بالضبط».

ـ لا أستطيع أن أفهم كيف استنتجت ذلك. رغم أنني أسلّم أن بإمكانه أن يكون طريفاً بحركاته الصبيانية.

فقالت: «أنت لن تكفّ عن هذا، أليس كذلك؟».

ـ أكف عن ماذا؟ عن الإهتمام بك؟

ـ نعم. نعم. نعم. تدخلك في حياتي أمر مشين قاس.

ـ تدخل؟ هل هذا ما تسمينه يا جنفييف؟ أنت تحيّرينني.

رفعت إليه عينيها البنفسجيتين: «بلين، أرجوك. أنا أجد هذا مؤلماً للغاية. هل يمكننا أن نتوقف عن هذا الكلام؟».

ـ لا. أريد أن أسمع منك شيئاً. هل قلت لهيلاري إنك تهتمين جداً لأمر كولين أم لا؟

تنهدت بيأس بالغ وهي تقول بانفعال: «سأصرخ إذا لم تدعني أذهب».

فقال بهدوء على الرغم من أن عينيه كانتا متألقتين: «لا. لن تفعلي هذا، يا جنفييف».

فقالت وهي تحدق فيه: «أود ذلك فعلاً».

ـ طبعاً تودين ذلك، فأنت تشعرين بأنك مهددة. ولكن يبدو أنك لا تريدين أن تتحدثي عن ذلك.

أليست هذه هي الحقيقة؟ فهي مرتعبة من فتح هذا الباب الذي قد يكشف عن أمور كثيرة. فقالت: «هل لي أن أشير إلى أن سالي تقف هناك عابسة؟».

ـ سالي لا تعبس أبداً.

قال هذا هازلاً، فهزت رأسها: «آه، بحق الله، أنا أعرف هذا. لكنها تفتقدك من دون شك».

وكانت سالي في الواقع تلوح لهما بذراعيها، فبادلتها جنفييف التحية محاولة أن ترسم على شفتيها ابتسامة مطمئنة.

ـ هل تلك زنبقتك على ثوبها؟

ـ نعم، فسالي تحب الزنابق كثيراً.

فقالت وقد احمر وجهها مما زادها جمالاً:

ـ من الطبيعي أن تعلم هذا فعلاقتكما قديمة.

حدق فيها قائلاً: «ما أجمل هذا. يبدو أنك تغارين».

www.elromancia.com

فحوّلت نظراتها عنه وأجابت: «لا تكن سخيفاً، فأنا أحب سالي. الأفضل أن تذهب وترقص معها».

ـ أنا مستمتع جداً برفقة ابنة عمي المفضلة.

ـ ليس دائماً.

فقال ساخراً: «بل دائماً، أياً كان مزاجك. كم تبدين جميلة هذه الليلة، هل أخبرتك بذلك؟».

ـ لا أتذكر أبداً.

كان جسدها كله يرتجف.

ـ حسناً، أنا أخبرك الآن. يعجبني ثوبك هذا للغاية.

جعلتها نبرة صوته توشك على البكاء. ورفعت بصرها إليه، فرأت نظرته متألقة. هل هي متفحصة؟ ساخرة؟ إنها تحبه. آه، نعم! لكنها تشعر نحوه بشيء من الكراهية كذلك. كان من الصعب عليها أن تقيّم صورة بلين الحقيقية في نفسها.

توقفت الموسيقى، ثم عادت الفرقة تعزف مرة أخرى. وهذه المرة كان اللحن أكثر سرعة وإثارة، فانتهزت الفرصة للهرب.

ـ عليّ أن أعود إلى كولين.

ـ لِمَ لا؟

وعاد فوقف والغضب بادٍ عليه: «يبدو أنك لا تستطيعين السيطرة على نفسك أثناء وجودك معي».

* * *

استمر الحفل مع تقدم الليل وازدياد البهجة، وبذلت جنڤييف جهدها لكي تجاري المزاج السائد. ولكن مع حلول الساعة الواحدة اضطرت إلى الإقرار بالهزيمة، فغادرت القاعة برفقه لالي، بينما بقي كولين الذي كان يمضي وقتاً طيباً. أما بلين وسالي فراحا يتمشيان بين شجيرات النخيل مستمتعين بحديث شيّق.

سألت جنڤييف لالي، غافلة عن لهجتها المحبطة: «أتظنين أن بلين

وسالي سيتزوجان؟».

ـ إنه لا يحبها يا عزيزتي، وأنت تعلمين هذا. أعني، إنها علاقة من دون ارتباط حقيقي.

ابتسمت جنڤييف ابتسامة جانبية جافة وقالت: «لكنها تحبه، لا تنسي هذا. إنها فتاة طيبة حقاً، وستكون زوجة ممتازة له».

ـ هذا صحيح من بعض النواحي، فقد ولدت ونشأت في البراري، وهي فتاة قوية عاقلة، وهي مرحة أيضاً. أنا أحب ذلك فيها، ولكنها لا تملك الجاذبية، إذا كنت تفهمين قصدي. الجاذبية كما هي بين القمر والمدّ والجزر. أنا لم أتمتع بهذه الجاذبية أما أنت فبلى.

فهزت جنڤييف رأسها: «إذن، فأنا لا أريد هذه الجاذبية. إنها لم تحقق لي أيّ نجاح يا لالي، حتى وإن كان هذا صحيحاً. ثم أنني قمت بشيء وعدتك بألا أفعله».

فسألتها لالي متعجبة: «وما هو؟».

فأجابت جنڤييف بضحكة جافة سريعة: «لقد جعلته يغضب مرة أخرى. لم تعد بيننا تلك المحبة السهلة».

ـ لم يحدث أن كانت علاقتكما سهلة قط.

نظرت لالي إلى وجه جنڤييف المتوتر، وأردفت: «إذهبي إلى فراشك يا حبيبتي. وأرجو الله أن تحلّ الأمور بينكما».

* * *

ما إن وضعت رأسها على الوسادة حتى استغرقت في النوم، بالرغم من المشاعر الحلوة المرة التي تتملكها وذلك المرح الصاخب الذي استمرّ ساعات. لكنها استيقظت مع خيوط الفجر، شاعرة برغبة في الخروج إلى الأدغال لكي تتمكن من التفكير بوضوح.

تسللت مبتعدة بهدوء من الباب الخلفي متجهة نحو الاصطبل، حيث أسرجت الفرس «أورورا» لتخرج في نزهة منعشة.

جالت بين البيت الريفي وبحيرتها المفضلة التي تسميها الأسرة

www.elromancia.com

«إيزيس»، وقد أطلق عليها هذا الإسم جد بلين تيمّناً بكبيرة الآلهات لدى المصريين القدامى.

تابعت جنڤييڤ نزهتها، وقد هدّأ الصباح المنعش من اضطراب مشاعرها المحبطة. حتى في هذه الساعة المبكرة، كان السراب يرسل بحراً من الأمواج الزرقاء عبر الأراضي المعشوشبة حيث ترعى الماشية. كانت جنڤييڤ شغوفاً للغاية بهذه البراري المهجورة.

إنها تعشق هذه البيداء المقفرة الفسيحة التي أحرقتها الشمس وهضبانها المنحوتة والبحيرات التي تمنح الحياة لهذه البراري الموحشة.

كانت تحب «جوبيلي» بقدر ما يحبها بلين، فالأرض تحدثها كما تحدثه. وهذه من الأشياء التي قربتهما من بعضهما البعض. إلاّ أنّ ما أرادته حقاً من بلين لم تأمل في الحصول عليه حتى أنها لم تكن تؤمن بوجوده.

لم تحب أحداً في العالم بقدر ما تحب بلين. لا أحد على الإطلاق.

ولكن بعد تلك... تلك اللحظة المسكرة كان عليها أن تقرّ بأن شعوراً لم تكن مستعدة له انتابها. شعور أشبه بالأحلام لأنه نظر إليها بشكل مختلف، كما ينظر رجل إلى امرأة. يبدو أن هذا ما سبب لها ذلك الشعور المتنامي بالإحباط، وهذه الرغبة القوية الدفينة في أن يتملكها بلين.

أتراها ستصبح كأمها؟ يا لها من فكرة فظيعة. لا يمكن انكار أنها وبلين، أصبحا عدائيين إلى حد ما. فهو يقف بينها وبين الأمور التي تظن أنها تريد القيام بها وهي تريد الهرب من سلطته. وما يخيفها حقاً هو أن علاقتهما التي كانت جميلة رائعة ذات يوم، تتبدد. ترجلت عن الفرس وسارت إلى حافة البحيرة، وانحنت تغسل وجهها بالمياه الصافية والنقية.

كانت تلك المناظر الرائعة المحيطة بها تأسر قلبها دوماً، والليلة الماضية، وصل ابتهاج كولين إلى حد طلب منها الزواج به. ربما كان سيركع على ركبتيه ويعرض عليها الزواج بشكل صحيح لو أنها شجعته قليلاً، لكنها لم تفعل لأنها لم تعد واثقة من مشاعرها. الحق يقال إنها

استمتعت حقاً بصحبة كولين أثناء الأشهر الماضية، فهو سهل المعشر وغير متطلب على عكس بلين. وابتعدت جنڤييڤ عن الماء إلى بقعة باردة على الرمال حيث استلقت ووضعت رأسها على قبعتها.

* * *

كانت شبه نائمة عندما عثر عليها بلين، فقد تكهّن بالمكان الذي قصدته عندما أخبره أحدهم أنه رآها في ملابس ركوب الخيل. كانت جنڤييڤ تعشق بحيرة «إيزيس»، فهي إحدى أمكنتها المفضلة.

ـ استيقظي، يا نائمة.

قال هذا برقة، خوفاً من أن تجفل بعد أن ركع على ركبتيه، وراح يلامس خدها بغصن من العشب.

فتحت عينيها الرائعتين وأخذت تحدق في الوجه الوسيم الأسمر المنحني فوقها. لم تدهش أبداً لعثوره عليها، فهو يقرأ دوماً أفكارها بدقة بالغة. البهجة التي تملكتها في البداية سرعان ما استحالت حذراً بدا في عينيها.

ـ يا لها من ليلة.

وتملكها الاضطراب عندما جلس بجانبها على الرمال.

ـ ما زالوا يحتفلون. هل تصدقين هذا؟

وخلع سترته وألقى بها على صخرة قريبة، ثم سألها: «ألم تستطيعي النوم؟».

ـ وهل استطعت أنت؟

ـ جنڤييڤ، عزيزتي، هل نسيت أنني لا أحتاج إلى الكثير من النوم؟

ـ آسفة لسلوكي الليلة الماضية.

ـ ظننتك سعيدة بتطور شخصيتك إلى الأقوى.

قالت بنعومة: «ولكن ليس إلى الحد الذي تريده، أليس كذلك؟».

ـ ما الذي جعلك تقولين هذا؟ ما زلت رائعة كما عرفتك دوماً.

ـ أنت دائماً ساخر، أليس كذلك؟

ـ وأنتِ تشبهينني في ذلك.

لاذت جنڤييف بالصمت فترة ثم قالت: «أنا أحب هذا المكان».

ـ أعرف هذا.

ـ أنا ريفية في دمي.

ـ ما زلت أذكر كل شيء، يا جنڤييف.

قال هذا بابتسامة ساحرة فسألته: «أحقاً؟ ما الذي حدث لنا، يا بلين؟».

ـ من أي ناحية؟

وحوّل نظراته بعيداً.

ـ لم تعد علاقتنا كما كانت.

ـ ربما لأنك كبرت.

فقالت بهدوء: «هل هذا هو السبب؟ لقد طلب مني كولين أن أتزوجه الليلة الماضية».

ـ أتظنينه سيتذكر هذا الصباح؟

فانفجرت تقول وهي تحدّق في وجهه، وفكه الحازم: «ألا يمكنني التحدث معك جدياً على الإطلاق».

ـ بكل تأكيد. لو كان كولين يقصد فعلاً ما يقول، لنصحتك بالرفض.

فقالت بغضب: «لماذا؟ عليّ أن أتزوج يوماً ما».

ـ يا له من جواب سخيف.

ـ لماذا تبدو وكأنك تمزح مع طفلة؟

وأمسكت بحجر وقذفته إلى الماء.

سألها رافعاً حاجبيه: «هل هذا مثل آخر من الغطرسة؟».

ـ حسناً، أنت كذلك. عندما أطلب رأيك، تتعمد أن تذلني.

رقت أساريره بشكل غير متوقع، وقال: «يا جنڤييف، لا يمكنني أن آخذ هذا الأمر على محمل الجد. كولين غاريت لا يناسبك، حتى إنك لا تحبينه».

وفجأة، قفزت بشكل لا يتناسب مع فتاة رشيقة رقيقة مثلها، ثم قالت بصوت متمرد: «وما أدراك؟».

ـ لأنني أعرفك.

وقف هو أيضاً، وواجه أحدهما الآخر: «ماذا تريدين أن تثبتي على أيّ حال؟ أنك ستقومين بأي شيء لتبتعدي عني وعن عالمي؟».

فصعقت: «كيف تقول هذا؟».

فقال وقد أظلم وجهه وبدا عليه الشرود: «ربما الحقيقة».

فقالت ضارعة: «ألا يمكنني أن أحصل على شخص آخر، يا بلين؟ ألا يمكنني أن أحب شخصاً آخر؟ أنت تعاملني وكأنني ما زلت طفلة، أما كولين فيعاملني كإمرأة. وهو الآن يطلب مني الزواج، وأنا أفكر في أن أتزوجه».

فتألقت عيناه الفضيتان، وأجاب: «إذا فعلت شيئاً بهذا الغباء، لا حكمة ولا مصلحة فيه، فلا أظنني سأرغب في رؤيتك مجدداً».

ـ لا يمكنك أن تعني هذا.

وبدا عليها الذعر، فقال وعيناه شاخصتان إليها: «لا تنسي أنني رجل متصلب».

فقالت وهي ترتجف: «أنا أعرف أن رحيل أمك لم يفارق ذهنك».

ـ لكنني شفيت من تأثير ذلك. أليس كذلك يا جنڤييف؟

وبدت على شفتيه ابتسامة خفيفة، وهو يسألها: «ما الذي جعلك إذن تعتقدين أنني عاجز عن الشفاء من تأثيرك؟».

عضت شفتها بقوة وقالت: «آه، هذا مؤلم جداً. مؤلم جداً مذاق المرارة هذا».

ـ إنه نتيجة ما يحصل بيننا. عليك أن تقري بالحقيقة يا جنڤييف.

ـ لعل الحقيقة معقدة إلى حد يجعلها لا تُحتمل.

ورفعت يديها بسرعة تغطي وجهها المتوهج، فقال بحدة: «ما من سبب يجعلك تشعرين بالذنب».

www.elromancia.com

- وماذا عنك؟ أنت تتدخل في علاقاتي كلها بينما أنا لا أقول كلمة عن علاقاتك.

- هذا غير صحيح. هل نسيت «مارشا» و«صوفي»؟

- لا أستطيع أن أتذكر عدد النساء في حياتك حتى أنني لا أفهم كيف أن واحدة منهن لم تستطع الإيقاع بك.

- أنت تمزحين. ما كنت لأسمح لهن بذلك.

ومدّ يده نحوها لكنها قفزت إلى الخلف، محمرة الوجنتين جافة الحلق: «أنا سأتزوج كولين».

قالتها وكأنها خطوط دفاعها الأخيرة ضده:

- إسمحي لي أن أقول إنك لن تفعلي هذا، أنت لست مهيأة للزواج. خصوصاً لزواج لن ينجح أبداً.

شعرت بأنها عاجزة عن السيطرة على لهفتها وغضبها وهي تقول: «كولين يجعلني أشعر كامرأة».

- أيّ شخص يجعلك تشعرين كامرأة.

هزّت رأسها، بصمت وضعف. وراح رأسها يدور.

لطالما شعرت معه بالأمان، وبالاطمئنان، لكن يبدو أن ذلك قد انتهى الآن.

لقد كانت نظراته تثير فيها مختلف أنواع المشاعر حتى تكاد تلهبها.

وبدا لها أنها لطالما علمت ما سيأتي. ولكن كيف ستحتمل ذلك؟ عقابه لها سيكون من شدة التأثير بحيث سيغيّر حياتها بأسرها.

سرت في عروقها رجفة لم تستطع كبح جماحها. لم تشعر يوماً بمثل تلك الأحاسيس. وفجأة، أحست جنڤيڤ بسعادة لا مثيل لها، سعادة بلغت قلبها وروحها... بل غمرت كيانها كله.

همست باسمه بصوت خافت، وقد أحست به يغزو قلبها أكثر فأكثر.

خفض نظره إليها... إلى وجهها الشاحب الجميل، إلى عينيها الرائعتين، إلى فمها المتوتر، فرأت توتر فكّه.

ما كانت مواجهة الحقيقة سهلة قط. لم يحرّر جنڤيڤ من اضطراباتها، بل زادها. وشعر بذلك بالرغم من تهوره الجنوني. كان عطرها في أنفه، وقد التف حوله كغمامة، لكنها ابتعدت عنه متعثرة، عاجزة عن الكلام. وتمكّنت أخيراً من أن تصرخ وتقول له إنها تكرهه، وإنه قهرها، حتى كادت الصدمة تصيبها بالجنون. يا للنساء كيف يحطمن قلوب الرجال!

***

www.elromancia.com
مـرومـانسيـة

٥ ـ الحنين الدفين

في اليوم التالي للعرس الذي لم يتم. عندما تركت جنڤييڤ الهاتف، كانت نادمة وحزينة للغاية، وتمنت لو أن الأرض تنشق وتبتلعها. كان المتصل كولين الذي راح يشكو من أنه لم يستطع أن يتحدث إليها قبل الآن لأن الخط كان مشغولاً. ففي الواقع، اتصلت بها انجيل آملة أن تمضي ابنتها بهذا الزواج التعس.

ولكن جنڤييڤ رفضت بحزم ما جعل أمها تغضب للغاية وتنعتها بأنها عديمة الإحساس.

لكنها قد كشفت لكولين عن مشاعرها، فكان رقيقاً وحساساً. إنه في الواقع انسان طيب للغاية وسينضج إذا ما تحرر من سيطرة أبيه الفظيع. لقد بكت، وبكى كولين. وأخيراً أقسم كلاهما على أن يبقيا (صديقين) إلى الأبد. فقد أظهر تفهماً عظيماً، عندما حاولت أن تعبّر عن حزنها وندمها وشكرها له لأنه أصغى إلى حديثها. لقد أساءت التصرف لكن كولين أقنعها بأنه يتفهمها، ما جعل عطفها عليه يزداد بسرعة فائقة، ودموعها تنهمر على خديها بعد أن وضعت السماعة. وقد عرفت جنڤييڤ أنه لن يجد أدنى صعوبة في الحصول على امرأة أخرى.

حتى إنه لم يسأل عن خاتم الخطوبة، ولكنها، طبعاً ستعيده إليه وكذلك الهدايا التي لا تزال في بيت انجيل. أخبرتها تيفاني هاتفياً وهي تضحك عالياً بمكر، أن حفل (الإستقبال) استمر بنجاح بالغ، وحدها

اكتشفت هوية سعيد الحظ الذي أسر قلب صديقتها.

نهضت جنڤييڤ من سرير المستشفى وتوجّهت إلى الحمام. كانت إيمي قد أحضرت لها في الصباح الباكر ملابس أخرى وبدت سعيدة للغاية وكأن جنڤييڤ لم تعرّض نفسها بحماقة، للسخرية والإزدراء.

عندما وصل بلين، وجدها وقد ارتدت ثيابها وجلست تنتظره.

ـ جاهزة؟

كان بلين يرتدي ملابس بسيطة بدا فيها بالغ الوسامة والحيوية. وعندما نظرت إليه، انهمرت دموعها مرة أخرى.

ـ هيا ياجنڤييڤ، علينا أن ننسى الموضوع.

كان في صوته لهجة خشنة بعض الشيء، ولم يربت على رأسها كالمعتاد.

ـ جففي دموعك. أن تشعري بالتعاسة أفضل من أن ترتكبي غلطة شنيعة.

لكن هذه ليست الحقيقة. فقالت صارخة: «لا أستطيع احتمال العودة إلى البيت، لا أستطيع. انجيل تظن أن الاحتفال ما زال قائماً».

ـ لطالما أرادت أنجيل أن تزوّجك بالرجل غير المناسب، وأنا لن أعيدك إلى أمك. سأخذك إلى فندقي، إلى لالي، وسنعود إلى جوبيلي بالطائرة عند العصر. أريدك أن تأتي معي.

كادت جنڤييڤ تطير فرحاً، فسألته ضارعة: «هل هذا فقط لمجرد إخفائي عن العالم؟».

فأجاب: «فكري في الجواب بنفسك».

والتقط حقيبتها الصغيرة، وراح يقودها إلى خارج الغرفة. بدا على عجلة من أمره، إذ قطع المسافة بسرعة. وعند مكتب الإستقبال، سألته: «ماذا عن الحساب؟».

ـ سددته وانتهينا. أخبرت كولين، أليس كذلك؟

فتنهدت: «ولماذا تظنني كنت أبكي؟».

فقال بجفاء بالغ: «اقتراف الأخطاء واستخلاص العبر منها يبني الشخصية».

ـ تباً لك. أنت من قال أولاً إنني عديمة الشخصية.

كان عند الباب الخارجي عندما تراجع بلين ونظر إليها مقطباً.

ـ بعض المصورين في الخارج، وأظنهم ينتظروننا.

ـ أرجو أن يكون معك سيارة... سيارة سريعة.

ـ معي سيارتك البي. إم دبليو.

فحملقت فيه: «هذا حسن. سنخرج برباطة جأش وهدوء تام».

فقال ساخراً وعيناه تكتسحانها في ثوبها الوردي المميز: «عظيم. ضعي نظارات شمسية على عينيك ولا تتكلمي».

شعرت وكأنهما يتجاوزان الإشارة الحمراء. كانت لالي قد نزلت في أفخم جناح في الفندق، لكن وعلى الرغم من أنها تحدّثت إلى جنفييف في المستشفى، لم يجدا لها أثراً.

ـ هذه رسالة منها.

وقرأ بلين ما كتبته، ثم قال: «خرجت في عمل لفترة قصيرة وستعود بعد ساعة».

فقالت جنفييف وهي تغوص في أريكة وثيرة: «حسناً. هل يمكننا أن نتحدث؟ أظن أن هذا هو هدف لالي».

فقال مهاجماً من دون أن يتقدم نحوها: «أظنك تجدين الحديث معي صعباً».

ـ أعترف أنني أثرت استياءك.

وأحنت رأسها، فأجابها قائلاً: «بحق الله، يا جنفييف كان علي أن أتصرف. أنسيت أنك كنت على وشك الزواج من كولين؟».

ـ نعم نعم. كنت على وشك أن أفقد السيطرة على نفسي.

وارتجفت.

ـ لقد حان الوقت لتكبري.

ـ أعرف هذا. لقد خدعت كولين.

اتجه بلين إلى الشرفة التي تطل على منظر المرفأ الأزرق الرائع.

ـ الحقيقة أنه ليس لامع الذكاء، حتى أنه ليس مخلصاً. وسواء ألغي الزواج أم لا، أعتقد أن صاحبك كولين أمضى وقتاً رائعاً الليلة الماضية.

فكادت تقول: ومن يأبه!.

لكنها توقفت في الوقت المناسب لتقول: «هذه هي شخصية كولين. على كل حال، كان نبيلاً جداً».

فنظر بلين إليها مؤنباً وهو يقول: «آه، إخرسي».

فصرخت بشكل عاطفي: «حسناً، سأخرس. ولكن قبل ذلك أريد أن أخبرك بأنني أحبك، أحبك من كل قلبي. وأكاد أفقد صوابي حين تكون بقربي. لقد قلبت حياتي رأساً على عقب».

عاد بلين وجلس على كرسي بجانبها: «كيف يمكن لامرأة أن تكتم حبها بهذا الشكل؟ لقد تصرفت وكأن حبي لك يهدد حياتك».

ـ هذا صحيح، وهذا ما شعرت به. لا بد أنني ساذجة للغاية. لم أكن مستعدة لذلك، فنحن أقرباء. وكنت تعاملني وكأنني أختك تقريباً، وإذا بك تلقي بي في الهاوية بشكل مرعب للغاية.

نظرت إليه والحب في عينيها: «بلين... أنا بحاجة إليك. بحاجة إليك أكثر من أي إنسان آخر في العالم».

ـ بأي صفة؟

ـ أتريد جواباً سريعاً؟

ـ لن أكلمك مرة أخرى إذا لم أحصل عليه.

فهتفت والحماسة في عينيها: «هذا جنون. لكنني أريد أن أكون زوجتك. زوجتك أنت وليس زوجة أي رجل آخر».

ـ مهما كنت خطراً؟

ونهض متقدماً منها برشاقة الفهد، وجلس بجانبها. رفعت بصرها إليه. كم بدا لها مألوفاً، أكثر من أي وجه آخر في العالم.

ـ إمنحني دقيقة لأفكر. . .

ـ لا! لا! لا!

وانهارت الحواجز بينهما، لتكشف عمّا في نفسها من حنين دفين.

ـ بلين. . . حبيبي.

أخذت تهمس باسمه مرة بعد مرة وصوتها يرتجف بالمشاعر. شعرت بجسدها يلتهب ولم يكن لديها فكرة عن الحب، لكنها بدأت تفهم معناه الآن. همس بعاطفة جياشة: «أصبحت لي الآن».

فأجابته هامسة: «أنا أحبك وحدك».

نظر إليها بحزم ليقول: «ستتزوجينني. هل هذا مفهوم؟».

فقالت بسعادة: «هل تريد جوابي خطياً؟».

فقال بسخريته الفاتنة: «ليس ضرورياً. هذا المرة، يا بنفسجتي، سيكون كل شيء أمامك مفهوماً، وواضحاً».

* * *

www.elromancia.com
مـرمـوريـة

قلب في امرأتين

١ ـ رجل أو امرأة؟

ـ تشارلي، هل تعرفين رجلاً يدعى «مات لوكهارت»؟

رفعت تشارلي نظرها عن البطاقات البريدية التي كانت تكتبها، لترى ابنة عمها سارا تنظر إليها بارتياب.

ـ أنت تعرفينه، لأن وجهك احمرّ وبدا عليك الشعور بالذنب.

فقالت شارلوت مدافعة: «لقد سمعت هذا الاسم من قبل».

ـ حسناً، أراهن أنه لا يعلم أن اسمك الحقيقي هو «اللايدي شارلوت بيلامي». إنه على الخط الآن يسأل عن «تشارلي بيل».

فقفزت تشارلي واقفة: «ماذا قلت له؟».

ـ قلت له هل لك أن تنتظر لحظة ثم جئت إليك مباشرة.

فهزت تشارلي رأسها بعنف: «لا أستطيع أن أتحدث إليه! أرجوك يا سارا قولي له إنني لست هنا، اسأليه عما يريده».

ـ أنا أعرف ما يريد.

وضاقت عينا سارا الزرقاوان، وشبكت ذراعيها على صدرها.

ـ وهذا ما جعلني أظن أن في الأمر خطأ ما.

وخفضت صوتها بشكل مسرحي: «يريد أن يتحدث إليك عن وظيفة قدمت طلباً للحصول عليها».

أومأت تشارلي وهي تجفف راحتيها الرطبتين بتنورتها: «نعم».

ـ نعم؟ أتعنين أنك قدمت طلباً للحصول على وظيفة؟

وعادت تشارلي تومىء برأسها.

- يا إلهي! من المفترض أنك هنا في استراليا في إجازة.

- إنها... إجازة للعمل. فقد رتبت أمر الحصول على تأشيرة عمل قبل مغادرتي إنكلترا.

أدارت سارا عينيها: «حسناً، ولكن هناك مشكلة كبيرة، وهي أن «مات لوكهارت» يظنك رجلاً».

فتنهدت شارلي: «نعم. ولهذا السبب لا أستطيع التحدث إليه. يجب ألا يسمع صوتي. هل لك أن تخبريه بأنني أقبل بالوظيفة؟ ولكن أرجوك ألاّ تدعيه يعلم أنني امرأة، فهذا سيفسد الأمور».

- لا أستطيع الكذب.

ضمّت تشارلي يديها متوسلة: «أرجوك يا سارا. أتوسل إليك! أعلم أن هذا غريب ومخيف، ولكن لا تقلقي فكل شيء واضح لا خداع فيه. اعرفي منه فقط متى يريدني أن أبدأ العمل».

- تبدئين بالعمل؟ أتعنين أنك تريدين حقاً أن تعملي؟ أي نوع من الأعمال هذا؟ لا يبدو من صوته أنه رجل من محيطك المعتاد.

- أسرعي وسأوضح لك الأمر فيما بعد. إنه يتصل من مسافة بعيدة في المنطقة الشمالية وسيقطع الخط.

- وأنت تريدينني أن أجعله يظن أنك رجل؟

فكررت تشارلي: «نعم، أرجوك».

وتملكها الإرتياح البالغ عندما خرجت سارا من الغرفة على الرغم من أنها كانت لا تزال تهز رأسها: «لا أحب هذا، يا تشارلوت».

- ثقي بي. لا ضرر من ذلك.

توجهت سارا على مضض نحو الهاتف في غرفة الجلوس، بينما تنهدت تشارلي بصوت مرتفع وهي تمرر أصابعها المرتجفة في شعرها الأشقر الطويل. سارا فتاة طيبة ولن تخذلها.

حاولت أن تكبح رغبتها في الاستماع إلى المحادثة من الهاتف الآخر

في الغرفة المجاورة، فحوّلت اهتمامها إلى مياه البحر الزرقاء المتألقة والرمال اللامعة لشاطىء سيدني. كانت شقة ابنة عمها تطل على منظر رائع للمحيط، وكان من السهل أن تفهم لماذا تركت سارا انكلترا لتعمل سنتين في استراليا. وقد حالفها الحظ لأن والديها تفهماها إلى هذا الحد.

التفكير في الآباء جعل تشارلي تعاود النظر إلى البطاقات البريدية التي كتبتها.

من المهم جداً أن يظن والداها أنها تستمتع بإجازة رائعة. وكانت، طبعاً، تشعر بالكدر لخداعهما... ولكن نظراً للظروف كان ذلك شراً لا بد منه. ومن المؤكد أن والديها، في النهاية، سيفخران بها.

عادت سارا فرفعت شارلي بصرها إليها وقد أخذ قلبها يخفق فجأة. سألتها بقلق: «ماذا حدث؟».

اتكأت سارا إلى الباب وهي تقول عابسة: «عليك أن تباشري العمل يوم الإثنين القادم. الحصان والسرج والأمتعة جاهزة».

شعرت تشارلي بالارتياح وقالت وهي تجلس فجأة وقد أحست بوهن في ساقيها: «هذا عظيم».

لكن سارا لم تظهر أي عطف وهي تتقدم نحوها ببطء متوعّدة.

- يسرّني أنك ترين هذا عظيماً، ولكن عليك إقناعي.

- سأشرح لك الأمر.

- لا بد لك من هذا، فأنا لا أعرف ما يجري ولا أريد أن أبقى كالصماء. كما أنني لا أحب أن أكون وسيطة بينك وبين ذلك الرجل لوكهارت، أو أن أتشاجر مع والديك عندما يسألانني عن مكانك، فمن المفترض أنك تحت رعايتي.

ثم جرّت كرسياً وجلست عليه قائلة: «والآن أخبريني كل شيء وبأدق التفاصيل».

* * *

بدت ابتسامة عريضة على وجه «مات لوكهارت» وهو يضع السماعة،

www.elromancia.com

متوجهاً إلى شرفة بيته الريفي في مزرعته «سانداون ستيشن» التي تملكها أسرته منذ ثمانين سنة. وعند رؤيته، أشاح آرش رئيس الرعاة في المزرعة، بنظره عن الأوراق المبعثرة أمامه على الطاولة قائلاً: «أنت تبتسم. هل حالفنا الحظ؟».

أومأ «مات» وهو يجر كرسياً ليجلس عليه: «حُلت المشكلة، فقد وجدنا جامع مواشي. وسيكون هنا الإثنين القادم».

ـ الحمد لله.

أومأ «مات» موافقاً. ففي الأسبوع الماضي، كسر أحد جامعي الماشية ساقه، فنقل إلى المستشفى ولم يستطيعا العثور على بديل يحلّ مكانه.

حصلت تلك الكارثة في أكثر الأوقات حرجاً، فالشتاء على الأبواب، ما يزيد ضغط العمل في الحظائر فضلاً عن أن العمال قليلون.

إتكأ آرش إلى الخلف، ونظر إلى «مات» قائلاً: «يبدو لي، من إبتسامتك المشرقة هذه، أنك عثرت على شخص يمكنه على الأقل، أن يمتطي حصاناً».

فهز «مات» كتفيه: «إسمه «تشارلي بيل» ولديه شهادة جيدة بالفروسية وهو يعتبر أن لديه خبرة كبيرة اكتسبها في أملاك والديه».

ـ أين؟

تردد «مات» لحظة، ثم تمتم يقول: «دربشاير».

ـ دربشاير... في انكلترا؟

ولم يستطع إخفاء ازدراءه.

رفض «مات» أن يدع الراعي يضايقه، فقال: «بعض الانكليز ذوي الخلفية الريفية يغدون جيدين بعد أن نعلمهم القسوة في الأدغال».

هز آرش رأسه ضاحكاً:

ـ فعلاً سيتعلم القسوة. وأرجو أن يكون مجتهداً. ولكن، هل يعرف كم هي بعيدة هذه المنطقة؟

ـ قلت له أن يستقل الطائرة في «كامووبل» وأنني سأرسل أحداً

ليستقبله.

فقال آرش وهو يحك رأسه الأشيب: «أتراك سهّلت عليه الأمور أو ما شابه؟».

فقال «مات» عابساً: «نحن لا نريده أن يتوه، ولكن لا تقلق، عندما يصبح هنا، لن أمنحه أي عذر. سأتأكد من أنه يجتهد في العمل، وإلا طردته».

أومأ آرش وعاد إلى أوراقه، بينما وقف «مات» وهو ينفض عنه الشكوك التي أخذت تتملكه بسبب الثقة التي وضعها في هذا الرجل الإنكليزي.

* * *

ـ أتريدين أن تقصيه بالكامل؟

صرخت سارا بها فأجابت تشارلي بحزم وهي تجلس أمام المرآة تحدق في صورتها بجمود: «بقصر شعر الرجال».

وقفت سارا خلفها وهي تهز رأسها بعنف ثم صاحت، وهي ترفع خصلات شعر تشارلي الطويلة الحريرية: «مستحيل! لا يمكنني أن أقصه هكذا!».

ثم أضافت بحسرة: «إنها جريمة بحق الطبيعة أن أقص هذا الشعر. لا، لن أفعل هذا. إن أردت ذلك، فاذهبي إلى الحلاق».

ـ لا أستطيع. لا أريد أن ألفت الأنظار، ثم لم يعد لدي وقت لكي أحجز موعداً. لذا اشتريت مقصاً جيداً وصبغة لأغيّر بها لون شعري.

ـ ولماذا تريدين أن تغيّري لون شعرك الذهبي إلى بني؟

ـ تجعلبنني أبدو وكأنني أعرض إعلاناً عن شامبو.

ـ يمكنك أن تعملي في هذا المجال إن أردت.

فقالت تشارلي بحدة: «لكنني أريد أن أبدو كصبي».

فأخذت سارا تضحك وتنهدت شارلي. لعلها تطلب المستحيل.

وشهقت سارا عندما سيطرت على مرحها.

www.elromancia.com مـرومـنـسـيـة

ـ أنظري إلى نفسك. أنت وردة انكليزية! بشرتك ناعمة وملامحك رقيقة، وعيناك خضراوان واسعتان وأهدابك طويلة إلى حد أنني أظنها أحياناً زائفة وكذلك هذا الشعر الجميل.

ـ ولكن لدي صبغة شعر ومقص ومحلول يجعل البشرة سمراء.

ومدّت تشارلي يديها أمامها تتفحص أظافرها الملونة ثم عبست، قائلة: «عليّ أن أقصّ أظافري أيضاً».

وضعت سارا يديها على وركيها عابسة: «حتى ولو عالجنا مسألة الشعر والبشرة والأظافر، كيف ستخفين صدرك».

فنظرت تشارلي إلى صدرها: «أما من طريقة لتسطيحه أو ما شابه؟».

تنهّدت سارا وعادت تتكىء على منضدة الزينة وتنظر إلى تشارلي ساخطة.

ـ هل لديك فكرة عن الحياة في البراري؟

ـ لا، ولهذا أنا ذاهبة إلى هناك. أريد أن أتذوق شيئاً مختلفاً كلياً، أريد أن أرى الحياة بأبعادها الصحيحة...

وسكتت. هذه الرغبة المحرقة لمغامرة مختلفة عن حياتها الآمنة الهادئة في انكلترا، أكثر من مجرد رغبة بسيطة.

ـ أريد أن أدخل إلى البراري. أريد أن أواجه الخطر والخشونة.

ـ ستحصلين تماماً على رغبتك هذه، وعلى الحرارة والغبار والذباب أيضاً، ناهيك عن المواشي القذرة الكريهة الرائحة، والرجال!

ـ وهل هم أيضاً قذرون وكريهو الرائحة؟

ـ بعضهم كذلك، ستجدين الحياة في البراري أشبه بزيارة كوكب آخر! صدقيني ستجدين ما يكفي دونما الحاجة إلى التظاهر بأنك رجل.

فصرخت تشارلي نائحة: «لكنهم سيطردونني حالما يعرفون أني امرأة».

ـ ربما، ولكن بدا لي من صوت «مات لوكهارت» أنه متلهف. ثم هناك نساء كثيرات يعملن في البراري... وهن نساء استراليات.

فقالت تشارلي ضارعة: «إذا كنت لا تريدين أن تقصي شعري، فساعديني على الأقل على صبغ وتغيير لون بشرتي. عندئذ سأبدو كفتاة استرالية».

رفعت سارا حاجبيها ثم تنهدت: «لا أصدق أنني أفعل هذا».

وتناولت صبغة الشعر وأخذت تقرأ التعليمات.

أمسكت تشارلي بيد سارا تعتصرها برفق: «أشكرك كثيراً يا سارا. ليس لديك فكرة كم يعني لي هذا».

ـ لا بد لي من القول بأن الحيرة والفضول ينهشانني.

اعترفت سارا بذلك عندما نظرت إلى عيني تشارلي الخضراوين.

ـ كيف يمكن لفتاة مثلك أن تتملكها فكرة جنونية كهذه؟

نظرت تشارلي إلى ابنة عمها بابتسامة متأملة. غالباً ما كانت تتساءل متى بدأت هذه الرغبة في زيارة البراري تتملكها. لطالما أرادت الهرب من نمط حياتها المتحفظ هذا، ربما بدأ ذلك عندما تصفحت في مكتبة جدها كتاباً كبيراً ضخماً حيث رأت صور لامعة ومشاهد ملونة غامضة مغمورة بأشعة الشمس، وجياد رائعة الجمال. تلك الصور أسرتها كلياً.

ـ لطالما أحببت المغامرات والتحدي. لو أنني ذلك الصبي الذي كان أبي متلهفاً للحصول إليه، لسرّه أن أثبت رجولتي بمغامرة في البراري.

ـ لكنك رأيت في الكفاح للوصول إلى القمة في عالم الفن في لندن، ما يكفي من التحدي والمغامرة.

فقالت تشارلي وهي تنحني على المغسلة لتبلل شعرها: «لقد فعلت ذلك تحقيقاً لرغبة أبي».

ـ ولقد نجحت في ذلك إلى حد كبير، كما سمعت.

ـ كما عليّ أن أبحث عن زوج... لكي يساعد أسرتي والأفضل أن يكون حسن النشأة.

ـ الزواج من اللقب والمال. كم هذا فظيع بالنسبة إليك.

قالت سارا هذا متهكمة وهي تلبس قفازين من المطاط وتعصر أنبوب

www.elromancia.com

الصبغة. فقالت تشارلي: «اشكري ربك لأن أباك هو الابن الثاني لإيرل. الضغط على أبي المسكين وعلى أمي وعليّ في هذه المسألة. فالمحافظة على مزرعة الأسرة سيرسله إلى الإفلاس ومن ثم إلى القبر».

ـ لقد سمعت أن ذلك البيت القديم يكاد ينهار وأظن أنهم يتوقعون منك أن تنقذي الأسرة.

فتنهدت شارلي: «نعم. وكلنا نعرف كم أصبح أصحاب الألقاب فقراء. هناك الكثير منهم ولكن أغلبهم مملون تنقصهم الوسامة».

ـ مسكينة تشارلي. لا بد أن أقول إنني أقدر حريتي.

وأضافت وهي تربت على رأس ابنة عمها مطمئنة: «ولكن المرأة الوحيدة التي تستطيع أن توقع في شباكها أروع الرجال هي أنت».

ـ ومع ذلك، أريد أن أقوم بمغامرة واحدة قبل أن أعود لأصبح ابنة مطيعة. أعلم أنني لو أخبرت أمي بما أنوي القيام به، لأصيبت بنوبة أخرى. ضغط دمها...

ـ ضغط دم أمك غير موثوق به.

ـ أريدهما أن يرتاحا ويظنا أنني أمضي إجازة مريحة، وفي النهاية أخبرهما بما فعلته حقاً.

فقالت سارا وهي تكوم شعر تشارلي الذي أصبح داكناً، على رأسها: «لا بأس، أظن بإمكاننا أن نبقيهما سعيدين».

ـ وأنا سأنتهز فرصة حياتي الوحيدة لأعيش مغامرة حقيقية مثيرة.

قالت تشارلي هذا بحزم، متجاهلة ما تشعر به من ذعر. وقالت مكشرة: «آه، لقد دخلت تلك الصبغة في عيني».

* * *

٢ ـ خشن وصعب وحار

قفز «مات» من سيارته بسرعة البرق، ثم توجه بغضب شديد إلى كوخ جامعي المواشي. رفس البوابة المعدنية، وهو يصيح: «أين هو؟».

صعد الدرجات بخطوتين ليقف أمام الباب الأمامي المفتوح ثم أخذ يحدق في الردهة المركزية المعتمة للكوخ. فأطل راعٍ صغير السن برأسه من الباب الأول وسأله: «عمّن تبحث يا سيدي؟».

فأجابه صارخاً: «عن الشاب الجديد «بيل» شارلي بيل».

ابتلع الفتى ريقه حتى كاد يغص به، قائلاً: «آخر غرفة إلى اليسار».

تابع «مات» طريقه في الممر وقد انقبضت ملامحه. فقد ضيّع لتوّه أربع ساعات وهو يقود السيارة في الغبار إلى «كامووبل» في حين قرر تشارلي بيل ألاّ ينتظره، مفضلاً ركوب شاحنة البريد مجاناً.

عندما وصل مات إلى الغرفة الأخيرة، لم يقف ليقرع الباب بل دفعه بخشونة فانفتح. ثم جمد مكانه.

فكل ما رآه هو ظهر امرأة ترتدي زياً غالياً لركوب الخيل.

ولكن عندما توقفت هذه عن البحث في حقيبة ظهرها واستدارت لتواجهه وقد اتسعت عيناها الكبيرتان الخضراوان مجفلة. فغر «مات» فاه، وبقي لحظة طويلة ينظر إلى هذه المرأة ذاهلاً. كانت رائعة بثيابها الغالية الثمن وحذائها الجلدي الثمين وبلوزتها البيضاء البسيطة ومواصفاتها الأنثوية التي لم تستطع إخفائها.

هز «مات» رأسه، وأقفل فمه، ثم فتحه مرة أخرى.

www.elromancia.com

- ما الذي تفعلينه هنا بحق الله؟

ارتسمت على شفتيها الجميلتين ابتسامة متوترة: «أنا تشارلي بيل».

- أنت امرأة.

فمدت إليه يداً نحيفة: «لا بد أنك السيد «لوكهارت»».

كانت يدها باردة ناعمة للغاية في يد «مات» الذي تركها بسرعة ثم دس راحتيه الخشنتين في جيبي بنطلونه وهو يحملق فيها.

- لماذا لم يخبرني أحد أنك امرأة؟

أخفضت عينيها، فأخذ ينظر إلى خدّيها اللذين اصطبغا بلون وردي محيّر. ولكن عندما عادت تحدق فيه، كانت نظراتها ثابتة: «ظننت أنك حتماً لن تهتم بي إذا عرفت أنني امرأة، وخصوصاً لأنني انكليزية».

فقال بحدة: «أنت على صواب تام».

تغلّب على الصدمة وعاد غضبه إليه، فاستدار ورفس قائمة سريرها.

- يا له من مأزق!

- أرجو ألاّ يكون الأمر كذلك يا سيد لوكهارت. إذا منحتني فرصة أظهر فيها مهارتي، أنا واثقة من أنك لن تندم أبداً على ذلك.

كان صوتها بارداً هادئاً ومهذباً جداً ولهجتها انكليزية أصيلة ذكّرت مات ببعض البرامج الإنكليزية التي اعتادت أمه أن تتفرج عليها. مهذبة؟ من تراها تخدع؟ واستدار إليها: «كان من قلة الأدب أن تقفزي إلى شاحنة البريد بدلاً من أن تنتظريني».

فقالت برقة وهي تعض شفتيها: «عليّ أن أعتذر مرة أخرى. خفت إذا ما تقابلنا في المطار كما طلبت أنت، أن تعيدني إلى الطائرة نفسها».

- هذا بالضبط ما كنت سأفعله. إسمعي، يا آنسة بيل.

ونظر بسرعة إلى يدها اليسرى، ثم أضاف: «وأظنك آنسة».

- أنا لست متزوجة إذا كان هذا ما تسأل عنه.

- يبدو أنك ماهرة جداً في حماية مآربك، وأنا لا أحب هذا. قد يكون عملك هذا مجرد خدعة كنت تحلمين بها لكي تتحدثي عنها على مائدة

العشاء عندما تعودين إلى بيتك...

فقاطعته تشارلي وهي تحدق فيه بذعر: «لا».

كيف يمكنها أن تجعل «مات لوكهارت» يفهمها؟

- هذا شيء هام جداً بالنسبة إلي.

- وكذلك بالنسبة إليّ. أخبروك بأن تنتظري. ذلك كان الاتفاق.

وحدق إليها بجد بالغ.

- والآن اسمعي. أنا اعتدت أن تنفّذ أوامري حرفياً. فإذا قلت لأحدهم أن ينتظرني في مكان ما، فعليه أن يفعل. عليك أن تفعلي ما يُطلب منك. فإذا لم تستطيعي تنفيذ التعليمات، فأنت تجازفين بحياة الناس.

- نعم، يا سيد لوكهارت.

- أنا لا أريد سائحين. أنا بحاجة إلى رجل ماهر، رجل مستعد لممارسة عمل شاق. هذا العمل ليس بنزهة، إنه خشن وصعب وحار.

- هذا ما كنت أتمناه.

طرف «مات» بعينيه، وقطب جبينه حائراً وهو يتأملها: «كنت تتمنين أن يكون...؟».

وأخذت نظراته تتنقل على جسمها: «أترانا نتحدث عن جمع الماشية؟».

ابتلعت تشارلي ريقها وقد انتبهت فجأة إلى نظرات لوكهارت الساهمة وأثارت اضطرابها تلك الطاقة في جسمه الصلب. خشن عنيف حار...؟ ما الذي كانت تفكر فيه؟

وما الذي ظن أنها تفكر فيه؟ مسحت العرق عن وجهها وقالت: «أنا... أنا أعلم أن العمل في البراري خشن.. وهذا ما أريده».

- لماذا؟

بقيت الأجوبة شهوراً حاضرة في ذهنها ولكنها هجرتها حالياً. وتابع: «هل حياتك تنقصها الإثارة؟».

تنفست شارلي بعمق، آملة أن تمنع وجهها من الإحمرار الذي أثاره

www.elromancia.com

سؤاله. نقص الإثارة في حياتها هو سبب وجودها هنا بالضبط، لكن لوكهارت طرح سؤاله هذا بازدراء بالغ منعها من الإقرار.

انتقلت نظراته إلى حقيبتها المفتوحة على الأرض كاشفة عن مجموعة من الملابس الداخلية وحاولت تشارلي أن تدفع غطاء الحقيبة بقدمها لئلا تعطيه تصوّرات كثيرة عن أنوثتها.

استقامت في وقفتها وبادلته النظر بثبات، ثم قالت: «حياتي هي كما أريدها بالضبط. وشكراً كثيراً لك يا سيد لوكهارت. أنا أفهم غضبك، ولكن هل هناك شيء تشعر بأنني لا أفهمه؟».

تأوه لحظة بنفاذ صبر وأحنى رأسه ثم حك رقبته. وفجأة، عادت نظراته إليها ثم انتصب في وقفته.

ـ نحن لا نلعب هنا. وعلينا أن نعتمد على بعضنا البعض. لذا علينا أن نثق ببعضنا البعض. ومن يغش سرعان ما ينكشف أمره.

قطبت جبينها وسألت: «يغش؟».

فالتوى فمه بابتسامة خفيفة: «نعم. المخادع والمحتال».

كبحت تشارلي شهقة ذعر. لو أن مات لوكهارت علم بهويتها الحقيقية، هل كان ليعتبرها محتالة؟

تقلصت معدتها، لكنها لن تدع هذا الرجل يرهبها. إنها واثقة من أن بإمكانها القيام بهذا العمل لو منحها الفرصة لذلك.

تنفست بثبات وهي تبادله النظر:

ـ أنا لن أتوسل إليك لتعطيني هذا العمل، يا سيد لوكهارت. لكنني أعرف أنك بحاجة إلى توظيف شخص، وأن العثور على جامع ماشية بسرعة في هذا الوقت من العام، صعب للغاية، وأنا الآن موجودة وأعتقد أنني مناسبة لهذا العمل.

طال الصمت الثقيل بينهما، لكن ملامح مات تغيّرت أخيراً وتحوّلت إلى تكشيرة هزل. ثم قال ببطء: «لديك قدرة على الإقناع».

وإذ كانت تحبس أنفاسها، تنفست الآن الصعداء. لكن ذلك كان

تسرعاً منها، لأنه عاد إلى العبوس.

ـ هل يمكنك أن تمتطي حصان سباق؟

ـ بكل تأكيد.

لقد تعلّمت ركوب الخيل منذ الخامسة من عمرها.

ـ دعيني أرَ يديك.

رباه! عاد التوتر إليها، ومدّت يديها الصغيرتين الرقيقتين. الحمد لله أنها قصت أظافرها. راح مات يتفحصهما بدقة، وإذ لم تضع عليهما الصبغة السمراء لئلا يبدو عليهما التكلف بدتا بيضاوين كالحليب. كما بدا معصماها نحيفين جداً وجعلتهما الأوردة الدقيقة الزرقاء يبدوان أكثر هشاشة.

أدركت أن رائحة «الكريم» العطري تفوح منهما، «الكريم» الذي تستعمله ليلاً نهاراً منذ كانت في الخامسة عشرة، وقد ندمت الآن على هذه العادة.

كان مقطباً بعض الشيء وكأنه قرأ مستقبلها في كفها ولم يعجبه ما رأى. وبعد فترة قال: «لن يمكنك أن تدمغي العجول».

ـ وهل تريدني أن أدمغ العجول؟

كان من المستحيل اخفاء نبرة الذعر في صوتها.

ـ ربما. وما هي قدرتك على خصي العجول؟

ـ خصي العجول؟

رددت كلامه ببلادة ومعدتها تتقلص لمجرد التفكير في ذلك.

ـ آسف ولكن لا يمكننا أن ندع كل العجول تتوالد.

ـ لم يأت أحد على ذكر هذه المهمات عندما قدمت طلباً للعمل.

ـ معظم الرجال يعرفون ما ينتظرهم في هذه الوظيفة.

فتهاوت آمالها. لأنهم إن رفضوها الآن سيكون الأمر فظيعاً، لاسيما بعد تلك الرحلة الطويلة بالطائرة أولاً، ثم بالشاحنة في هذا الجو الحار.

www.elromancia.com

لقد نجحت حتى الآن ولا تريد أن تعود. فهي لم تر يوماً ريفاً وسهولاً بمثل هذا الاتساع، فضلاً عن تلك المجاري المائية الزرقاء الرائعة، المحفوفة بالصخور والأشجار الضخمة التي تعج بأعشاش الطيور.

ـ لقد سبق واستخدمت نساءً من قبل، وكن جميعاً عاملات جيدات، وطبعاً لم يكن انكليزيات. وهن يعرفن ما جئن لأجله.

ووضع يديه على وركيه، قبل أن يردف: «ولكن، كما قلت لي من قبل وبلطف بالغ، في حالتي هذه، ليس أمامي خيار آخر».

ـ هذا صحيح.

ـ ولكن ما هو السبب الحقيقي الذي جعلك تحضرين إلى هنا؟

رباه، عليها أن تحاذر في الجواب. وبللت شفتيها: «لقد حلمت بهذا منذ كنت فتاة صغيرة».

ـ أحقاً؟

ـ ألا تحلم أنت، يا سيد لوكهارت؟

أجفل لسؤالها، وساد صمت مريب: «سنغادر إلى أول مخيم للرعاة في الصباح. والأفضل أن تأتي معنا».

وضاقت عيناه، ثم أضاف: «ولكن إذا لم تتمكني من مجاراتنا فلن ندعك تؤخرينا، وستجلسين وحدك تنتظرين شاحنة البريد لكي تعيدك إلى المكان الذي أحضرتك منه».

واستدار فجأة وتوارى من الباب، فصاحت من خلفه: «شكراً لك».

ورغم أنها كانت تشعر بأنها ترتجف من هذه المواجهة إلا أنها لم تستطع أن تتذكر ما شكرته لأجله.

وما إن خرج حتى عاد ووقف عند العتبة: «فكرت في أن أذكرك بألاّ تزعجي نفسك بإحضار أي من سراويل الركوب الزاهية اللون معك».

واستقرت نظراته على بنطلونها ذي اللون الفاتح.

ـ هذه ليست مباراة في الفروسية والبنطلون سيتلف حتماً.

فقالت مرة أخرى، شاعرة بتحسن غريب: «شكراً».

كان الظلام مخيماً عندما سمعت طرقاً طويلاً على بابها ونباح كلب. جاهدت للخروج من أحلامها، فاستدارت على جنبها واحتضنت وسادتها. كانت تحلم بيد كبيرة قوية سمراء تمسك بيدها... تقودها إلى مكان جميل... وقطعت عليها ذلك الحلم قرقعة أسرّة وخطوات أحذية ثقيلة ترددد صداها على الأرض الخشبية، وأبواباً تفتح وتغلق...

رباه... وقفزت من سريرها ونظرت إلى ساعتها. لم تستطع أن تقرأ الرقم في الظلام. لكن الأصوات كانت كافية لتنبهها إلى أن الرعاة استيقظوا وأن الفجر حل. طرق أحدهم بابها وهو يناديها بلهجة استرالية قوية.

ـ الفطور جاهز يا تشارلي.

وفي أقل من لحظة، نهضت من سريرها وراحت ترتدي ملابسها بأصابع مرتبكة لشدة السرعة. وساد الصمت الغرف. هل ذهبوا جميعاً؟ وهل هي آخر شخص؟ سارت في الغرفة متعثرة تحاول أن تنتعل الجزمة الطويلة وهي تركض واندفعت إلى الردهة وهي تمشط شعرها بأصابعها كيفما اتفق. اجتازت طريقاً معشوشباً إلى مطبخ المنزل الريفي، واستطاعت من الخارج أن ترى الأضواء الصفراء وتسمع همهمة الرجال المنخفضة. وتمنت ألا يلاحظ أحد تأخرها، ثم دخلت المطبخ. فساد صمت مفاجيء، والتفت إليها عشر رجال. فقالت: «صباح الخير».

ـ صباح الخير.

تصاعدت همهمة جماعية بالتحية، ثم عاد الرجال إلى التهام الطعام. وعندما تقدمت بهدوء إلى الموقد تسكب في صحنها البندورة المقلية والخبز المحمص، استمرت عينان فقط تحدقان إليها من آخر المائدة، عينان داكنتان في وجه وسيم لوّحته الشمس... وهو وجه رئيسها.

رؤيتها له جعلت عينيها تتسعان. لقد لاحظت الليلة الماضية أن مات لوكهارت وسيم، ولكنها كانت مشغولة جداً في إقناعه باستبقائها بحيث لم

www.elromancia.com

تنتبه إلى الأمر. أما الآن فبدا، وهو يجلس مع مجموعة من الرجال، كتحفة فنية رائعة تجذب الأنظار. كان وجهه متناسقاً بعظام وجنتيه القوية وأنفه وفكه وعينيه الداكنتين الحساستين. كان عريض المنكبين ويتمتع بوسامة طبيعية تفيض رجولة عنيفة.

وعندما أدركت أنها تحدق فيه، سارعت إلى خفض نظرها ثم جلست على كرسي بين اثنين من الرعاة وراحت تأكل. نظرت إلى ساعتها فإذا بها الخامسة والربع.

لقد ابتدأ يومها الأول في منطقة الادغال.

ـ مرحباً.

سمعت صوتاً ينادي فالتفتت بفضول لترى رجلاً بالغ النحول يضحك لها.

ـ أنت إذاً تشارلي بيل، جامعة المواشي؟

ـ أظن ذلك.

ـ منذ متى وأنت في استراليا؟

ـ منذ أسبوعين.

منحها ابتسامة مغرورة وهو يضحك بصوت خافت. فردت على ابتسامته بابتسامة مؤدبة.

ـ آسفة، لم أعرف اسمك.

أجاب بابتسامة غرور أخرى: «التمساح داندي».

أطلق الفتى الصغير الذي يجلس قبالتها ضحكة متوترة، لكن الرجل الذي بجانبها قال بهدوء: «لا تهتمي به يا تشارلي. إنه «تيد سميث» وهو يظن نفسه ممثلاً هزلياً».

عادت تشارلي إلى طعامها، ولكن الحاضرين كانوا قد أنهوا طعامهم وشربوا قهوتهم ثم نهضوا واقفين. وراحت تنظر بحزن إلى قهوتها التي لم تُمس وطعامها الذي بالكاد تذوقته.

قال لها مات وهو يمر بجانبها وقد بدا عليه الإنشغال: «أتريدين أن

تبقي بعض الوقت؟».

فقالت بسرعة وهي تقفز وتلتحق بعنف بالرجال الخارجين إلى حيث الفجر الشاحب: «لا. لا. أنا جاهزة».

وعاد مات يقول لها: «هل وضعت متاعك وعدتك في الشاحنة؟».

نظرت تشارلي إلى الشاحنة المحمّلة بالأمتعة والعلب والسروج وبطانيات الجياد.

ـ لا. ما زالت أمتعتي في غرفتي. هل أركض وأحضرها؟

فأجابها بتهكم: «فكرة حسنة ربما علينا أن نسرع بالرحيل».

اندفعت تشارلي إلى غرفتها ممتعضة لأنها لم تسأله عن ذلك في الليلة الماضية. وضعت حاجياتها في حقيبة حملتها على كتفها، ثم اعتمرت قبعتها العريضة ووضعت كيس الأمتعة الذي أعطوها اياه الليلة الماضية، تحت إبطها. كان ثقيلاً للغاية، وأخيراً حملت السرج الذي أعطاها رئيس الرعاة إياه، ثم خرجت، محنية الظهر تحت ثقل الأمتعة.

وإذ شعرت بأنها تحمل ما يفوق طاقته، رفضت أن تواجه نظرات أي من الرجال الذين سارت معهم إلى الشاحنة.

سار مات بجانبها يقول: «دعيني أحمل عنك شيئاً».

ـ أنا مرتاحة تماماً.

أجابته بجفاء رافعة رأسها عالياً بينما عيناها مسمرتان على الشاحنة التي تنتظر. وطبعاً، لم تر الحفرة في الطريق، وتبعثرت حمولتها على الأرض... لا بل على مات لوكهارت. أوقعت العلب والأمتعة والسرج... والخيمة كما وقعت هي أيضاً... بقي مات لحظات مذهولاً. وعندما فارقه ذهوله، سمعها تقول: «لو قدرت فقط أن أتخلص من هذه الصرّة، لاستطعت أن أتحرك».

كانت تجاهد لكي تخلص نفسها، لكنها لم تستطع.

حبس أنفاسه، راجياً ألاّ تلحظ اضطرابه.

توقفت حركات تشارلي اليائسة فجأة عندما لاحظت أنه يراقبها.

راحت عيناها الخضراوان تحدقان إليه بذهول ثم بحذر. واصطبغ وجهها بذلك اللون الوردي المحيّر الذي لاحظه الليلة الماضية.

حوّل وجهه ناحية الرجال، وزعق يقول: «ألن يساعدها أحد؟».

وأخيراً ابتدأ العمل، تقدّم الرجال ورفعوا الأغراض، فتمكنت تشارلي من الوقوف.

أما هو فقال ببطء: «هيا، لقد ضيّعنا ما يكفي من الوقت».

وبدون أن ينظر إلى أحد، صعد إلى مقعد السائق في الشاحنة، ثم انطلق بها. وما إن انطلق بالشاحنة، حتى أخذ يتساءل عما إذا كان عليه أن يعرض على تشارلي الجلوس بجانبه.

* * *

توقف الموكب بعد أربعين دقيقة، عانت تشارلي خلالها من الخجل والغضب والإحباط. فما من بداية عمل أسوأ من هذه.

بذلت جهدها لتبعد عن ذهنها صورة مات لوكهارت وهو يحدق بها والذهول باد على وجهه.

لقد خانها جسدها، فنظراته أشعلت الدم في عروقها.

هذه الأفكار صعقتها، فقد جاءت إلى هنا لتعيش مغامرة لا لتقع في غرام رئيسها الجديد.

أثناء الرحلة، كانت تشارلي تجيل نظرها في المشهد الممتد حولها. كان شاسعاً تماماً كما في الصور التي رأتها في كتاب جدها. وشعرت بالارتياح عندما وصلوا إلى الحظائر فأمامهم عمل كثير وعليها أن تركز اهتمامها على عملها.

راح الرجال ينزلون أحمال الجياد والدراجات النارية، في حين قاد مات عجلاً قوياً أسود وفرساً كستنائية رشيقة، قوية المظهر نحو تشارلي. أرغمت نفسها على رفع بصرها إليه بحذر، لكنها لم تر على وجهه أثراً لأي انزعاج من ذلك الحادث المحرج الذي حدث هذا الصباح.

قال وهو يناولها لجام الفرس: «هذه هي (دوقة) خطواتها ناعمة وهي

تعشق عملها. حالما ترى ماشية، ترفع رأسها وتقف على قائمتيها الخلفيتين مستعدة للعمل».

ـ مرحباً يا (دوقة).

وأخذت تشارلي تربت على الفرس الحريرية الملمس. ثم قالت له باسمة: «إنها رائعة الجمال».

أخذ ينظر من تحت قبعته العريضة إلى وميض خفيف في الأفق البعيد، وهو يقول: «طائرتا الهليكوبتر تدفعان القطعان في هذا الإتجاه... لذا سنحضرها من قرب النفق رقم ٥٥ وعند الظهر ستتمكن من أخذها إلى النفق ٦٧».

أومأت تشارلي. لم يكن عدد الأنفاق يعني لها كثيراً كما أحست بالجوع لمجرد ذكر الساعات الطويلة الباقية حتى يحين الظهر. ومع ذلك ها هي على وشك أن تخوض أول مغامرة لها.

امتطى مات جواده، ثم توجه إلى الأمام. وهو ينادي من فوق كتفه:

ـ عندما تصبحين مستعدة، الأفضل أن تأتي معي.

لم تكن واثقة من أن هذه فكرة جيدة. فهي إن اقترفت إيّ غلطة، سيكون رئيسها أول من يعلم بها. ومع ذلك لم تفهم لماذا شعرت بالسرور يغمرها عندما علمت أنها ستمضي الصباح بأكمله بجانبه.

ابتعد قليلاً، ثم انتظر ريثما أسرجت تشارلي فرسها. نظر إليها وهي تتحدث برقة إلى الفرس، ورأى مدى السهولة التي قفزت بها إلى ظهر الفرس واستقرت على السرج. وعندما تناولت اللجام، لم تحتج إلى أكثر من تربينة بسيطة على الفرس لكي تندفع «دوقة» إلى الأمام.

تبدد التوتر الذي كان يشعر به، فتشارلي تشعر بثقة تامة على ظهر الفرس. أدار رأس حصانه إلى الغرب، وأومأ للرجال ثم انطلق. وسرعان ما أحاطت به الجياد تضرب الأرض الصلبة بحوافرها. وكانت تشارلي لا تزال تتبعه.

خلال ربع ساعة، شعرت تشارلي بالحرّ والعرق ينصبب منها، لكنها

كانت مبتهجة بالركوب. دفعت قبعتها إلى الخلف لتنظر إلى قطيع الماشية التي لم تر يوماً قطيعاً بضخامته.

ألقى مات بتعليماته فتوزّع الرجال في مجموعات مؤلفة من شخصين أو ثلاثة. وأخيراً نادى تشارلي:

ـ ستأتين معي لتفحص جدول الماء، هناك حيوانات متأخرة عن القطيع علينا أن نخرجها.

بللت شفتيها وأومأت. إنها مهمتها الأولى. وتبعت مات متوترة إلى جدول جاف. لا بد أن عدداً من رؤوس الماشية جال هناك أملاً بالعثور على الماء. وشعرت بالارتياح عندما رأت أن دوقة تعلم تماماً ما عليها فعله.

واكتشفت أن «دوقة» فائقة الذكاء، فإذا حاول أي حيوان الإبتعاد، توجّهت نحوه على الفور وأعادته إلى الانجاه الصحيح. وفي حالات عدة، عندما كان الإتجاه يتغير بسرعة، اضطرت تشارلي لاستعمال كل مهارتها لكي تبقى ثابتة على ظهر الفرس.

وأخيراً أخليا الجدول من الماشية، ثم لحقا بالرجال الذين يعيدون بقية القطيع إلى الشرق.

شعرت تشارلي بأن مات مسرور من جهودها، فأحست بارتياح كبير لأنها أنجزت شيئاً ما.

كان هدفهم الوصول إلى الحظائر عند العصر، وكانت الشمس محرقة فسرّت تشارلي لأنها اعتمرت القبعة العريضة. تدافعت قطعان الأبقار والعجول متزاحمة، في دوامات من الغبار.

وارتسمت على وجهها ابتسامة انتصار صغيرة وهي تفكر في أنها تقود فعلاً قطيعاً من الماشية في براري أستراليا!

تبادرت إلى ذهنها صورة معرض الفنون الذي تعمل فيه في لندن... بناء أثري أنيق من الحجر الرمادي، مليء بالمكاتب حيث يجلس رجال جادون، نحيلو الوجه، خلف مكاتب ضخمة مغطاة بالجلد ويتمتمون على

الهاتف بأصوات هادئة منخفضة مهذبة. ونساء في ملابس باهظة الثمن يركضن يمنة ويسرة وقد بدا عليهن الإنشغال أو السأم.

الآن وفي الناحية الأخرى من الكرة الأرضية، على صهوة فرس، تحت شمس حارقة، ومحاطة بغبار خانق، بدت لها حياتها الحقيقية أشبه بشيء قرأت عنه في مجلة ما.

هبت ريح مفاجئة عبر السهول أيقظتها من أحلام اليقظة هذه لتعيدها إلى حاضرها. وبالقرب منها حملت الريح قبعة راعٍ وأخذت تدحرجها، فنزل عن حصانه ليستعيدها. وفي تلك اللحظة اندفع حصانه هارباً.

اندفعت تشارلي وفرسها «دوقة» وراء الجواد الهارب. وعندما وصلت إلى محاذاته، استطاعت أن تميل عليه وتلتقط اللجام. عادت مهرولة إلى تد سميث، الذي وقف حاملاً قبعته وقد بدا شيء من الخجل على وجهه وهو يقول بابتسامة متذمرة: «شكراً. لقد أحسنتِ».

واقترب مات ليقف معهما وهو يقول مشجعاً: «لقد أبليت حسناً».

فكبحت سرورها وهي تجيب: «يجب أن تشكر «دوقة». فهي التي تصرّفت».

منحها مات ابتسامة سريعة وأومأ لها وهو يعود إلى السير أمامهما.

عندما عاد تيد سميث إلى امتطاء حصانه، مال إلى الأمام.

ـ أتعلمين؟ كلامك صحيح بالنسبة إلى مهارة «دوقة». إنها الفرس المفضلة عند الرئيس، وهي الأفضل بين الجياد وهو عادة، يمتطيها بنفسه، ربما أعطاك إياها لأنك فتاة.

واندفع مبتعداً بحصانه قبل أن تجيبه. ولكن إذا كان يأمل أن يخفف من زهوها، ويزيد من اضطرابها، فقد نجح في ذلك.

كانت لا تزال تشعر بالقهر والجوع والحر الشديد عندما وصلوا عند الظهر إلى النفق ٦٧، حيث توقفوا لتناول الغداء. وزُعت شطائر اللحم والمخلل، فأكلت تشارلي حصتها بنفس نهم الرجال وسرعتهم.

قال لها مات وهو يناولها فنجان شاي كبير: «لا جدوى من محاولة

دفع الماشية للسير في أكثر أوقات النهار حراً، لأنها سرعان ما تصبح حادة الطباع، لذا سنأخذ فترة راحة».

وعاد إلى مجموعة من الرجال كانوا يرتاحون بعيداً تحت ظلال أشجار المطاط.

شعرت أنها كالمنبوذة، فأخذت تفكر في ما يمكنها فعله. بإمكانها أن تشارك الرجال حديثهم، أو أن تجلس بمفردها في الظل.. أو تحاول أن تنعش نفسها. وقررت التوجه إلى أقرب بركة مروا بها عند مجيئهم.

إنها بحيرة بعيدة مما يجعلها تصلح للانفراد. بدت لها شبه نظيفة ومنعشة جداً وهي ممتازة للتخلص من الغبار والحرارة اللذين تشعر بهما.

عندما وصلت إلى البركة، نظرت خلفها باحتراس. كان الرجال بعيدين عنها كثيراً، وهم إما في غفوة وعلى وجوههم قبعاتهم، وإما يدخنون ويثرثرون بهدوء. ولمزيد من الاحتراس، غطست في الماء وهي مرتدية ثياب الركوب.

لم تشعر في حياتها بمثل هذا الإنتعاش السريع. غسلت المياه الباردة الغبار عنها وانعشت بشرتها. سبحت نحو منتصف البركة، مستمتعة، ثم عادت ببطء إلى ضفاف البركة طافية على ظهرها، مسترخية تماماً.

ليت أمي تراني الآن... أخذت تفكر بذلك ضاحكة بهدوء.

ـ إصغي إليّ وافعلي بالضبط ما أقوله لك.

بدا هذا الصوت المتوعد قريباً. وداخلها الخوف، فاستدارت بذعر لترى القادم من خلفها!

ـ آه... يا إلهي.

***

٣ ـ المتاعب لا تنتهي

وقف مات على ضفة البركة حاملاً بندقية بدا أنه مستعد لاستعمالها. فأخذت تشارلي تتخبط في الماء بعنف وهي تحاول أن تحمي نفسها.

تقدّم خطوة متوعدة أخرى، ثم سمعت صوت الزناد وهو يضغط عليه فكاد قلبها يتوقف من شدة الخوف. حاولت أن تغطس تحت الماء أكثر وقد ازداد رعبها، فهي تعرف ذلك الصوت. لقد حشا بندقيته لتوه.

قال بصوت خشن بارد: «لا تتخبطي، لا تحدثي أي صوت، فقط أخرجي من الماء».

هذا غير معقول! الشراسة البادية في عينيه صعقتها. كيف حدث هذا؟ إنها وحدها مع مجموعة من الرجال الغرباء ورئيس عنيف يحمل بندقية. والأسوأ من ذلك، أنه يطلب منها الخروج من الماء مصوباً نحوها بندقية.

صرخت به نائحة: «ابتعد من هنا وإلا سأصرخ طالبة العون».

ـ أيتها الحمقاء! ماذا تظنين أني أحاول أن أفعل؟ عليك أن تخرجي من المياه، فهي ليست آمنة.

ـ البركة غير آمنة؟

لم تفكر في ذلك قط. ولكن من وجهة نظر تشارلي، لم يعد هناك من مكان آمن تذهب إليه.

فنظر إليها ساخطاً: «قد يتوجّب علي أن أطلق النار، فاسبحي بسرعة إلى الضفة».

www.elromancia.com

بدا صوته أقل وعيداً، وتحوّلت لهجته من الغضب إلى الإلحاح، ما نبّه تشارلي إلى أنه لا يفكر في اقتراف جريمة وأن هناك شيئاً غير عادي. عند ذلك أدركت أن لا خيار لها وأن عليها أن تمتثل لطلبه، فأخذت تسبح إلى الضفة مرتعدة، فيما مات يراقب حركتها.

عندما وصلت إلى الحافة لم تعد تعرف ما إذا كان عليها البقاء في الماء أو الخروج منه.

صرخت وهي تتشجع لتغادر الماء: «هل من أفاعٍ؟».

فقال ببطء: «لا، وإنما تمساح كبير».

عند ذلك اندفعت من الماء بسرعة إلى الضفة وقد تملكها الرعب. واكتشفت بدهشة أن مات صوّب بندقيته إلى دائرة وسط البركة تندفع منها فقاعات. قال بهدوء: «تراجعي ببطء إلى أعلى الضفة».

فانطلقت تركض.

خفض مات بندقيته شاعراً بالإرتياح، لكن عينيه بقيتا شاخصتين إلى الماء. أعطى شارلي وقتاً كافياً لتسترد أنفاسها قبل أن يلحق بها إلى الضفة، وعندما وصل بقربها انتبه إلى صمتها فراح يفرغ البندقية من الرصاص ليضعها في جيبه.

لاحظ كيف أخذ الماء ينساب من ضفيرتها وثيابها. شعر بالارتياح لأن الخطر زال أخيراً فابتسم لها مشجعاً، لكنها ردت عليه بتكشيرة.

ـ ظننت لحظة أنك ستجادلينني في البركة.

التهبت عيناها غضباً وردت عليه بحدة: «أبهذه الطريقة يمزح سكان البراري مع الفتيات الانكليزيات؟».

كان عليه أن يصرخ في وجهها وحتى يهددها بطردها من العمل... لكنه، بدلاً من ذلك، عندما حملقت فيه بتلك الوقاحة، رأى نفسه يقول ضاحكاً: «لكنك كنت تقتربين أكثر مما يجب من حياتنا البرية».

ـ هل هناك... تمساح؟

ـ نعم. يبلغ طوله حوالى ستة أمتار. ومن يدري عدد المخلوقات التي

التهمها في أعماق هذه البحيرة!

فقدت سيطرتها على أعصابها في لحظة وبدا وكأن شخصاً ما فجّر في داخلها قنبلة يدوية فأخذت تنهار قطعة قطعة. شحب وجهها وأخذت ترتجف بعنف بينما وهنت ساقاها. اقترب مات منها مشجعاً.

فصرخت وهي تجفل مبتعدة عنه: «أنا بخير. ويمكنك أن تبقى بعيداً».

عاد إلى الخلف عابساً، وقد سقطت يداه الكبيرتان إلى جانبيه.

ـ ظننت أن التماسيح تعيش فقط في مجاري المياه الكبرى والأنهار.

ـ النهر لا يبعد سوى كيلومترين. ولا بد أنه جاء إلى هذه البركة أثناء الطوفان الذي تعرضت له هذه المنطقة.

همست وقد فارقتها آخر ذرة من الشجاعة: «آه، يا إلهي».

والتفتت إليه بوجه شاحب وعينين متسعتين يملأهما الذعر تحيط بهما أهداب سوداء كالفحم. وشعر مات بغصة في حلقه. بينما صرخت هي وشفتها ترتجف كوردة منتفخة، ناعمة على وشك أن تتناثر أوراقها.

ـ أي غلطة أخرى يمكنني أن أرتكبها هنا؟

وفجأة وجد نفسه يفكر في أنهما لو التقيا في مكان آخر... في حفلة مثلاً، على أنغام الموسيقى، بدلاً من هذه البراري المنعزلة... ماذا كان ليحصل؟

ولكن، من أين خطرت له هذه الفكرة المعتوهة؟ وشعر بأن التعقل ينقصه. ومع ذلك سمع نفسه يقول لها:

ـ كان عليّ أن أحذرك من السباحة. لا تقلقي، فأنت الآن بخير. كما أن ثيابك ستجف بسرعة.

لكن شفتيها بقيتا متوترتين وهي تجلس لتنتعل جزمتها الطويلة. أضاف مات بخشونة: «من الأفضل أن تسرعي إذ علينا أن نعود لنتفقد المواشي».

ثم ابتعد عنها دونما النظر خلفه.

www.elromancia.com

جلست تشارلي تنظر إليه يبتعد ويداها لا تزالان تمسكان بالجزمة. للمرة الأولى منذ مغادرتها انكلترا، أخذت تفكر في أن رغبتها الدائمة في المغامرات غلطة كبرى. ما الذي دهاها حتى تترك حياتها الآمنة الرتيبة، لتأتي بمفردها إلى براري خشنة في أقاصي الأرض؟

كانت قلقة لأنها خدعت مات، ولكن أتراها تخدع نفسها أيضاً؟ في أول يوم لها، أخذت ترتكب الخطأ تلو الآخر، حتى إنها كانت من الحماقة بحيث قدمت نفسها وجبة حيّة لتمساح!

في طريق العودة الطويلة إلى مخيم الماشية، كانت لا تزال ترتجف وقد تملكها الاضطراب. ليس بسبب حسن حظها الذي مكّنها من النجاة، فحسب... بل بسبب مات لوكهارت الذي بدأ يشغل بالها. رأته صادقاً مخلصاً صريحاً يواجه العالم بأمانة واستقامة، فزاد شعورها بالذنب لخداعها له. كما أنه بالغ الوسامة، وهي لم تكن تتوقع أن يجعلها رئيسها تفكر فيه بهذا الشكل...

لكنها هزت رأسها... لا، لن تفكر في شيء سوى العمل الذي عليها القيام به.

عندما وصلوا إلى المخيم، أنساها قلقها العمل الكثير الذي كان بالانتظار. أنزلوا السروج واللجم ووضعوها في الظل، وأطلقوا سراح الجياد لترعى بعد أن قدّموا إليها بعض الحبوب وغسلوا ظهورها.

بقيت أمامهم عملية فرز المواشي، أي فصل العجول عن أمهاتها، والثيران الصغيرة عن المخصية منها.

خلال بقية العصر، راح مات يعطي تعليماته بزعيق يعلو على خوار الحيوانات وصهيلها وملاطفات الرجال وشتائمهم، بينما كان الرعاة يوزعون الماشية على مختلف الحظائر.

أما تشارلي فوقفت على قمة السياج الخشبي قرب مات لكي تحصي عدد الثيران الصغيرة والمخصية منها. ووجدت أن ذلك يتطلب تركيزاً بالغاً فسرّها أن تلتهي قليلاً عن سيل الأخطاء التي ارتكبتها والتي يبدو أنها

تلاحقها منذ وصولها.

بذلت تشارلي جهدها لتبتلع اللحم المطبوخ مع البصل، قبل أن تنصرف إلى غرفتها استعداداً للنوم. لقد توقفت أخيراً عن التفكير في مات الذي توارى في مكان ما لكي يتشاور مع طيّاري الهليكوبتر. وسرعان ما استغرقت في النوم، لكنه زارها في الحلم.

وقف ينظر إليها وهي تخرج من المياه الباردة المتألقة تحت أشعة الشمس. لم يعد شعرها بنياً، بل عاد ذهبياً وقد استرسل على كتفيها، وراح هو ينظر إليها كما ينظر رجل إلى امرأة يحبها.

رمقها بنظراته تلك وقتاً طويلاً حتى أوهن قلبها، ثم قال لها أخيراً بابتسامة بطيئة: «أريدك لي، يا تشارلي بيل».

لم تشعر قط بأنها محبوبة إلى هذا الحد. ولكن سرعان ما خرق صوت المحرك الصمت السائد، فقطع عليها ذلك المشهد وسلبها الحلم. فتحت تشارلي عينيها الناعستين وظهر أمامها الضوء في عربة الطاهي.

ومن مكان قريب، سمعت أصوات تذمر وشعرت بالارتياح وهي تدرك أنها ليست الوحيدة التي تحتاج إلى مزيد من النوم. ومع ذلك، صممت على مباشرة نهارها بنشاط، فقفزت من سريرها بسرعة وانضمت إلى الرجال الذين كانوا يتناولون الفطور، وهي تشعر بشيء من الدوار. شربت الشاي وتناولت طبقاً من البيض والسجق، ولم تدرك أنها بجانب مات إلاّ بعد أن ارتمت على مقعد خشبي قرب الموقد، فارتجفت لوجوده قربها، وعاودها الحلم الذي راودها.

وسألها: «هل نمت جيداً؟».

أدركت أنها احمرت خجلاً، وأن عيني مات البنيتين لاحظتا ذلك. ولكن الحمد لله لأنه لا يستطيع قراءة أفكارها. أجابت وهي ترتشف الشاي:

- رقدت كالميتة.

جاء راعٍ آخر ليتناول فطوره فأفسح له مات مكاناً وازداد اقتراباً من

شارلي فكادت تسقط عن مقعدها. لم تستطع أن تصدّق ردة فعلها عمّا حدث. كان شعوراً ساحقاً مربكاً لم تختبره حتى في فترة مراهقتها.

لكنها الآن في السابعة والعشرين من عمرها، وستعود إلى انكلترا بعد أسابيع قليلة لكي تبحث عن زوج من محيط أبيها.

ـ هل سنعمل في الحظائر اليوم؟

فأومأ بعد لحظة تفكير، ثم أجاب:

ـ في الواقع، قد نكلفك بالعجول الصغيرة في الفناء. فأنت لن تصرخي بها وتشتمي كالرجال فتخيفيها.

وابتسم لها، وللحظة واحدة خيّل إلى تشارلي أنها رأت لمحة اهتمام خاص... ذلك النوع من الاهتمام الذي رأته منه في الحلم.

هذا يكفي!

أنهت فطورها بسرعة ثم وقفت، متعمدة تحويل انتباهها عن رئيسها إلى الدغل خلف المخيم، كان المشهد جميلاً هادئاً في هذه الساعة المبكرة حيث الأشجار والعشب والسهول تبدو خضراء وذهبية وفضية.

ولكن لم يكن وقتها يسمح لها بالوقوف طويلاً أمام ذلك المشهد، إذ سرعان ما ابتدأ العمل. كانت العجول الصغيرة قد نقلت إلى الفناء لتبدأ عمليات التطعيم والخصاء. كان عمل تشارلي مقتصراً على التأكد من الحيوانات التي يجب أن تخضع لهذه العمليات ومن أن الحقن مليئة بالطعوم، والسكاكين مطهّرة جيداً.

عمل الكل بروح من التعاون وشعرت تشارلي بالارتياح وهي ترى أن الرجال تقبّلوا وجودها، فما عادوا يلحظون أنها امرأة أو أنها آتية من الناحية الأخرى من العالم. ولم يعبأوا بإغاظتها، ما جعلها تستمتع في العمل. لا سيمّا في نهاية هذا اليوم المجهد عندما تولت إعادة العجول إلى أمهاتها، كما كانت مسرورة لأنه ما زال لديها طاقة كافية للاستحمام خلف الحظيرة. فكل ما تمكنت من فعله الليلة الماضية هو اغتسال سريع، لكنها الآن غسلت شعرها ونظفت أظافرها وأزالت كل أثر لقذارة النهار، ثم

نقعت ثيابها في ماء الصابون مع غيرها من ملابس الرجال.

كانت واقفة في الشمس تمشط شعرها النظيف عندما تقدّم مات منها، مبدياً شيئاً من الخجل. لم تكن قد رأته أثناء النهار على الإطلاق، فسألها فجأة: «هل يمكننا أن نتكلم؟».

أجابته بحذر آملة ألا تكون قد أخطأت: «أظن ذلك».

قادها إلى مسافة بعيدة نوعاً ما عن المخيم وبقي يسير ببطء وهو يقول: «أظنك متعبة للغاية، فقد كان يوماً مجهداً».

ـ أشعر بتحسن كبير مقارنة بالليلة الماضية. لا بد أنني أعتدت على العمل.

ـ هذا حسن.

وأخذ يرفس بقدمه بعضاً من العشب، فتوقفت تشارلي عن الحديث ونظرت إليه بفضول: «ماذا أردت أن تقول لي؟».

ـ أردت أن أسألك...

ـ نعم؟

دس يديه في جيبي بنطلونه، ورفع رأسه يحدق في السماء نصف ضاحك، نصف متأوه.

مهما كان ما سيقوله، فقد بدا صعباً، وشعرت تشارلي بالذعر.

ـ ما الذي أخطأت به الآن؟

فالتقت عيناه بعينيها: «لو كنا في المدينة، لطلبت منك الخروج معي».

آه... هذا آخر ما توقعته. وأخذ قلبها يخفق.

فقالت برقة بالغة: «هذا لطف منك».

ـ إلى العشاء أو المسرح...

وتصوّرت فجأة نفسها وهي تدخل المطعم برفقة مات مرتدية ثوباً حريرياً... ثوباً أنيقاً و... وجذاباً للغاية.

وفكرت في حلمها.

نظر مات إلى المخيم والفناء والغبار والسهول خلفهما وضحك.

ـ هذا ليس بالضبط مكاناً مناسباً للخروج معاً. لكن هناك مكاناً قريباً أريد أن أريك إياه.

والتقت عيناها بعينيه فابتسم بخجل، قبل أن يضيف: «بما أنك هنا لتشاهدي الريف».

توقف قلب شارلي عن الخفقان، وعندما ابتسم بهذا الشكل نسيت حرصها وأجابت بشكل آلي: «وأنا متلهفة لرؤيته».

ـ أسرجي فرسك ودعينا نذهب.

وكمراهقين مجنونين تسللا من حفلة، أحضرا فرسيهما وأسرعا مبتعدين عن المخيم. وفي طريقهما، أشار مات إلى صخور حمراء في الأفق فأسرعا معاً نحوها مجتازين السهول.

وعندما وصلا إلى الجدار الصخري، وجدته منحوتاً بدقة لكن قروناً من الزمن صدّعته. نزلا عن صهوة جواديهما وربطاهما، ثم قاد مات تشارلي عبر شق ضيق بين الصخور. كان الممر يدور حول صخور عالية، وإذا بالأرض تنكشف فجأة عن فسحة من الأرض رائعة الجمال. وقفا على حافة صخرية عند باب كهف عميق لينظرا إلى شلال ماء يصب في بحيرة عميقة من المياه الخضراء الصافية.

شهقت تشارلي بإعجاب بالغ: «هذا رائع».

فقال ببساطة: «أنا أحبه. أظنه أجمل مكان في العالم».

ثم أردف: «تعالي اجلسي هنا وتفرجي على المشهد».

جلست تشارلي بصمت بجانبه على الصخرة الدافئة شاعرة بسعادة تعجز عن تفسيرها لدعوته لها وإشراكها معه بمكانه الخاص هذا. كان الوقت يقارب الغروب فأخذا ينظران إلى الطيور العائدة إلى أعشاشها، بينما مات يخبرها بأسمائها.

أطلقت صيحة إعجاب رقيقة عندما تقدّمت حيوانات الكنغر الجميلة لتشرب كما تفعل الطيور. فقال مات: «أنا آتي إلى هنا لأشعر بالسعادة».

فأجابت وقد امتلأ قلبها بالمشاعر: «يمكنني أن أفهم هذا. أشكرك جداً لأنك شاركتني هذا المكان، لا أظنني عرفت في حياتي مثل هذه المفاجأة الجميلة في موعد مع صديق».

فضحك وردّ: «يسرني أنه أعجبك».

ثم راح ينظر إليها قائلاً:

ـ المشكلة يا تشارلي، هي أنني معجب بك ولا أستطيع التعبير عن ذلك بحرية.

أدهش هذا القول تشارلي، وشعرت أنها تذوب خجلاً لكلام هذا الرجل الوسيم. ثم ابتسم قائلاً: «لقد أعجبت بك منذ اللحظة التي وقعت فيها عيناي عليك».

ـ حتى عندما كنت غاضباً مني؟

فقال ضاحكاً: «نعم. خصوصاً حينذاك».

ـ لقد سمعت أن الرجال الاستراليين رقيقو المشاعر...

فابتسم ببطء وقد امتلأت عيناه بالمشاعر: «والآن عرفت أن ذلك صحيح».

ـ بكل تأكيد.

ـ وأنا سمعت أن الفتيات الإنكليزيات متزمتات.

ـ أحقاً؟

وضحكت وهي تزم شفتيها.

ـ أليس صحيحاً أن الفتيات الإنكليزيات يتربين لتكون كل واحدة منهن لايدي؟

ـ لايدي؟

رددت كلمته بصوت ارتجف فجأة. فقد ظنت للحظة أن مات ينصب لها فخاً... ليعرف هويتها الحقيقية.

لكنه عاد يقول بصوت أبح: «لا تقلقي يا تشارلي. أنا لست بحاجة إلى لايدي. أنا أريد امرأة مثلك، ممتلئة أنوثة».

www.elromancia.com

وابتسم لها مرة أخرى، ولكن، بالنسبة إليها، كان سحر هذا المساء قد تبدد وسعادتها أيضاً.

كلمات مات البريئة ذكرتها بأنها مزيفة الشخصية، وأن ما تفعله خداع كبير. فهي ليست فتاة إنكليزية عادية، مغامرة تحمل حقيبة على ظهرها وتحب حياة الأدغال، وإنما اللايدي شارلوت بيلامي الإبنة الوحيدة لإيرل. وعليها أن تتحمل ما يتطلبه ذلك من مسؤوليات وأعباء.

ما الذي دهاها لكي تعطي لمات أملاً في حين أنها تعلم أنه ليس من بيئتها؟ لم يكن هذا ذنبه. فهو يظن أن ما من شيء يمنع تقاربهما، حتى ولو أصبح الأمر جاداً بينهما وأخذا يخططان لمستقبل يجمعهما معاً. أغمضت عينيها وأخذت تشكو سوء حظها بصمت. في هذا المكان وجدت أكثر الرجال الذين عرفتهم جاذبية، لكنها لا تستطيع أن تتركه يقع في غرامها.

وبجهد كبير ابتعدت عنه. لقد حان الوقت لتصبح قوية. يكفيها أن تخدع والديها وهي لا تريد أن تخدع مات... وتنجرف في علاقة عاطفية غير مناسبة، فهذا مستحيل.

ـ ماذا حدث؟

وبدت عليه الحيرة وكأنه لم يستطع أن يفهم ردة فعلها هذه. ولم تستطع هي أن تلومه فمنذ دقائق تجاوبت معه.

ابتعدت قليلاً، ثم قالت مترددة: «ها... هذا الحديث عن (اللايدي)».

وبضحكة عابثة، رد قائلاً:

ـ كنت أمزح فقط...

ـ أعرف هذا. لكنه ذكّرني بأنه عليّ أن أشكرك لأنك سمحت لي بامتطاء فرسك المفضلة.

ـ المعذرة؟ لم أفهم.

حاولت أن تشرح له الأمر: «أخبرني تيد سميث بأنك قدمت إليّ فرسك المفضلة التي تمتطيها دوماً».

ـ تباً له!

وبدا الغضب فجأة على مات واحمر وجهه قبل أن يقول: «هذا ليس من شأنه».

ازداد شعور تشارلي سوءاً. كانت تحاول أن تخرج من ورطتها فإذا بها توقع تيد سميث فيها.

قفزت واقفة: «أرجوك يا مات لقد زل لساني لم أكن أنوي أن أورط تيد في مشكلة».

نهض بدوره ونظر إليها بلطف، متمتماً: «لا تقلقي يا عزيزتي».

يا إلهي كم هو جذاب وكم هي ضعيفة أمامه!

ـ أظن أنّ علينا أن نتذكر أن هذا هو موعدنا الأول.

قطب حاجبيه وسحب يديه يبعدهما عنها، قائلاً: «طبعاً».

ـ أشكرك كثيراً لأنك أحضرتني إلى هنا. إنه حقاً مكان ساحر.

يا إلهي... بدت وكأنها تتلو كلمات مهذبة علمتها إياها مربيتها.

بدا طيف ابتسامة على ملامحه فعرفت أنه حائر، وربما متألم، لنفورها المفاجيء. وقال بهدوء: «الأفضل أن نعود. لا بد أنك متعبة».

لقد وجد لها عذراً وقام بالشيء الصواب... فتصرف كرجل مهذب، وشعرت بمعنوياتها تنهار.

ودونما أي كلمة أخرى، قادها مات من خلال النفق بين الصخور إلى حيث الجوادين، فامتطياهما بصمت وعادا إلى المخيم.

***

www.elromancia.com

٤ ـ ما هو سرك؟

في الصباح التالي، استيقظت تشارلي على صوت صراخ. كان الرجال متحلقين حول الموقد يصرخون غاضبين.

نسيت تعبها بعد تلك الليلة التي لم تعرف فيها النوم، ونهضت تنتعل جزمتها وترتدي قميصها وبنطلونها لتلحق بمجموعة من الرجال يتفرجون على تيد سميث يحملق في وجه مات العابس وعينيه اللتين تقدحان شرراً.

تحوّلت عينا مات إلى تشارلي عند اقترابها، فتشابكت عيناها بعينيه الغاضبتين لحظة قصيرة، ثم تحولتا مرة أخرى. وبعد أن رمق تيد سميث بنظرة سريعة استدار وابتعد عن الجميع بدون أن ينبس ببنت شفة.

راحت تشارلي تنظر إلى مات وهو يبتعد غاضباً، ثم عادت تلتفت إلى تيد سميث. كانت عيناه تنظران إليها بازدراء شعرت معه بوجهها يستحيل أحمر. فتح فمه وكأنه يريد أن يقول شيئاً، لكن رجلاً آخر أمسك بذراعه وشده بخشونة.

ـ دع عنك ذلك، يا تيد، لقد سبق وقلت ما يكفي لكي تفقد وظيفتك.

تملك تشارلي فيض من الشعور بالذنب.

ـ يفقد وظيفته؟

كانت الحركات المرتبكة الجواب الوحيد الذي تكرّم به عليها المتفرجون. أخذت تشارلي تتأمل المجموعة محاولة أن تجد بينهم من ينظر إليها... لكن الجميع نظر إلى الأرض، فاندفعت خلف مات بلهفة:

«مات!».

لكنه لم يتوقف.

ـ ما الذي يحدث؟

استدار بسرعة، وعندما رآها قريبة منه قال بحدة محذراً: «لا تهتمي بذلك. اذهبي وتناولي فطورك».

كان غاضباً منها، فقالت متوسلة: «أرجوك يا مات. لم أشأ أن أعرّض تيد لمشكلة».

بدا عليه شيء من الارتباك قبل أن يتمتم متردداً: «كنا نتناقش فقط. تيد لا يعرف متى عليه أن يقفل فمه».

ـ لكنك مستاء.

فقال بعناد: «نعم».

ـ ماذا قال؟

لكنه هز رأسه بدون أن ينبس بحرف واحد.

فقالت: «بدا تيد وكأنه غاضب مني».

فتنهد وهز كتفيه: «قلت لك ألاّ تهتمي بذلك. إنه أمر بين الرجال. تيد يتكلم كثيراً، ولم يعجبني كلامه الآن».

ـ هل تكلم عني؟

أظلم وجهه وقال مكشّراً: «أظن أنك ستسمعين بالأمر على أيّ حال. لقد لاحظ تيد وشخصان آخران غيابنا مساء أمس، فأخذوا يثرثرون».

حدقت تشارلي في الأرض، تماماً كما فعل الرجال منذ دقائق.

ـ ولكن يمكنك أن تطمئني إلى أن سمعتك محفوظة، يا تشارلي. وتيد لن يبقى هنا ليثرثر على هواه.

ـ هل طردته من العمل؟

ـ ليست المرة الأولى. إنه مزعج جداً، وقد أثار غضبي مرات كثيرة. لذا أظن أن الحظ حالفه لأن كل ما فقده هو وظيفته.

وشدّ قبضته، مضيفاً: «لأني وددت أن أفقده أسنانه أيضاً».

www.elromancia.com

ـ لكنني ظننتك بحاجة إلى كل عامل يمكنك الحصول عليه حالياً.

فقال بابتسامة خفيفة وهزة من كتفيه: «عليك فقط أن تجتهدي قليلاً في العمل، أليس كذلك؟».

ثم استدار مبتعداً، فدفنت تشارلي وجهها بين يديها. لقد آلمت الليلة الماضية مات، فأفرغ سخطه على تيد. إن حضورها يسبب المشاكل.

كم كانت حمقاء ضعيفة. فما إن ذكر مات أمامها كلمة (موعد) أمس، حتى تصاعدت في داخلها أصوات التحذير. لكنها كانت مشغولة عن ذلك بوسامته وابتسامته الظريفة. وإذا بها تنجرف بسبب نظرته إليها... لقد نسيت نواياها الجادة كلها.

وفي اليوم التالي توارت تشارلي عن الأنظار قدر الامكان رغبة منها في استعادة سمعتها، فلحقت بآرش وعملت معه في الحظائر. ولم تر مات سوى مرات قليلة، فقد كان مشغولاً مع قافلات الشاحنات الضخمة التي جاءت لتنقل مواشي إلى الأسواق. لكنها اشتاقت إليه.

وعند المساء، قبل أن يغادر الجميع المخيم الرئيسي للعودة إلى المنزل الريفي، عاد مات مرة أخرى. رأته تشارلي وقد استحم لتوه. كان جسمه لا يزال مبتلاً. وعندما سار وهو يجفف شعره بمنشفة، تسربت أشعة الشمس من خلال الأشجار على ظهره وكتفيه، ولم تستطع تشارلي أن تحجب نظرها عنه.

ـ انتبهي إلى طريقك!

واصطدمت بآرش الذي كان جالساً تحت شجرة ينظف سرجه.

فقالت وقد اصطبغ وجهها بلون أحمر داكن: «آسفة».

نظر آرش بارتياب إلى وجهها المحمر وإلى جسد مات ثم هز رأسه لكنه لم يقل شيئاً.

أسرعت تشارلي، والخجل والارتباك يتفجران منها، إلى مرعى الخيول وبقيت هناك وقتاً طويلاً تداعب دوقة بشكل لم تعرفه هذه في حياتها.

وفي اليوم التالي عاد الفريق إلى البيت الريفي في ساندواون ليومين قبل أن يعاودوا عملهم في جزء آخر من الأملاك الفسيحة.

دهشت تشارلي عندما اكتشفت أن الجميع يتناول العشاء مع مات في البيت الريفي، وكان الرعاة يستمتعون بالشراب والطعام.

لم تستطع تشارلي أن تمنع نفسها من سؤال الراعي الجالس قربها: «هل يأكل الرئيس دوماً مع عماله؟».

فالتفت الراعي الفتى إليها، وقال: «أظن ذلك. وما الغرابة في ذلك؟».

فأجابت: «هذا ليس غريباً... إنه مختلف فقط. ما كان أبي ليتصور نفسه يأكل مع خدمه».

وفجأة، توقّف الحديث حول المائدة، واستدارت الرؤوس نحوها، وسألها آرش بحذر: «وهل لدى أبيك خدم كثيرون».

وأخذ قلبها يخفق فجأة بسرعة: «لا، لا. أنا لم أقل خدماً، أليس كذلك؟ أعني (موظفون)، إن أبي من النوع المحافظ نوعاً ما».

قطب آرش جبينه وكأن جوابها لم يرضه.

وسألها شخص آخر: «وماذا يعمل أبوك؟».

ـ إنه يتاجر باللوحات الفنية ويجمعها.

وتفادت النظر في عيني آرش.

ـ هذا ممتاز. وماذا عنك، يا تشارلي؟ هل تعملين في الإصطبلات؟

ـ أحياناً.

كان مات يراقب تشارلي من آخر المائدة، مصغياً إلى الحديث باهتمام بالغ، متذكراً خبرتها العريقة مع الجياد.

وأدهشها أن يسألها آرش: «هل تعرفين شيئاً عن الفنون؟».

ولم يعجبها الشك البادي في عينيه: «قليلاً. لا يمكنك أن تعيش مع شخص مولع بالفن مثل أبي من دون أن تنتقل إليك العدوى ولو قليلاً».

تدخل راعٍ آخر يقول بحماسة: «يجب أن تلقي نظرة على رسوم

www.elromancia.com

الرئيس».

ـ أحقاً؟

ونظرت إلى مات، ثم سألته: «هل تجمع لوحات فنية؟».

ـ بل إنه فنان.

هز مات كتفيه بلامبالاة: «إنها هواية فقط. أرسم في أوقات فراغي».

وبدا وكأنه يريد انهاء الحديث.

فقاطعه الرجل الذي بجانبه: «لا تتواضع يا مات، إنك رسام ممتاز».

ثم التفت إلى ناحية تشارلي مضيفاً.

ـ إذا كنت تعرفين شيئاً عن اللوحات، يا تشارلي، فيجب أن تلقي نظرة عليها ثم تخبريه كم هو ماهر.

ـ أود أن أراها.

تمتمت تشارلي بذلك بنعومة، وأخذت تحدق في صحنها وهي تستوعب هذا الخبر. شعرت بالأسف لأجل مات الذي سيحرج إذا ما رأت رسومه ووجدتها فظيعة. وما الذي يعرفه هؤلاء الرعاة عن الفن؟

عندما انتهى العشاء وتفرّق الرعاة، تقدم مات إليها بخفة، لكنها شعرت وكأنه وخزها فالتفتت وشهقت بصوت مرتفع لأنها وجدته قريباً جداً منها.

ـ هل يمكنك أن تنتظري لحظة؟

فأومأت بصمت.

وانتظرا، حريصين على عدم النظر إلى بعضهما البعض، ريثما أخلى الرجال الغرفة. واخيراً أصبحا وحدهما فسألته: «هل تود أن تريني لوحاتك؟».

فارتسمت ابتسامة صغيرة على شفتيه: «أليست تلك خطة الفاسقين من الرجال لكي يغروا الفتيات بدخول غرفتهم؟».

فانقبض صدر تشارلي: «هذا ما تقوله القصة».

تخلل شعره الكثيف بأصابعه، وقال بسرعة: «لا أتوقع منك حقاً أن

تنظري إلى لوحاتي. لكنني أتساءل عما إذا كانت خبرتك كافية لتميّزي الجيدة منها فيما لو عثرت عليها».

خفضت بصرها إلى الأرض وهي تفكر في جواب مناسب. لم تشأ أن تخبر مات عن مركزها المرموق في أحد أكبر معارض لندن للفنون.

ـ أبواي يعيشان ويتحدثان ويتنفسان فناً، وقد أخذت عنهما معرفة جيدة في هذا المجال.

ونظرت إلى يديه الكبيرتين وتصورته يمسك بالفرشاة.

وعندما تقابلت نظراتهما مرة أخرى، أدهشها أن ترى التوتر في وجهه. وفكرت متنبهة إلى أن هذا أمر هام بالنسبة إليه.

فأضافت وهي تبتسم له مشجعة: «يسرني جداً أن أرى عملك».

ـ حسناً.

وقادها إلى الغرفة الرئيسية في المنزل، قبل أن يردف: «ولكنك لست مضطرة لمسايرتي فأنا لا أتوقع منك التأثر بعملي».

لكن تشارلي تأثرت، وإلى حد بالغ.

سارت إلى وسط الغرفة ثم توقفت فاغرة فاها. لقد تملكها الذهول من دون وعي منها وهي تجول على الرسوم وعيناها على الجدران.

ـ مات... هذه أعمال مثيرة!

وقف مات خلفها يراقبها.

وقفت تتأمل لوحة كبيرة تجسد راعياً متكئاً على سياج بعد يوم عمل شاق وهمست: «اللون... الطريقة التي تمكّنت فيها من إظهار أشعة شمس أستراليا».

وهزت رأسها وتحوّلت تنظر إلى لوحات أخرى.

ـ ثم أن طريقتك... فريدة... استطعت أن تعبر عن الكثير بمجرد لمسات جريئة. لقد جمعت بين الإحساس بالمدينة المعاصرة، وشيء بدائي... بدائي جداً كهذه الأرض نفسها. وهذا عمل رائع.

فقال ببساطة: «أنا مسرور لأنها أعجبتك».

www.elromancia.com

فسألته: «لا بد أنك حصلت على بعض التدريب؟».

ـ في المدرسة الداخلية. كان لدينا معلم فنون جيد، وبعد ذلك تابعت بنفسي.

وفجأة، أسرعت تشارلي لتتأمل عن قرب لوحة صغيرة، تمثل صخرة حمراء متألقة يجاورها شلال أخضر وتعلوها سماء زرقاء مذهلة. ونادته من فوق كتفها:

ـ هذا هو المكان الذي أخذتني إليه ذلك النهار.

ـ نعم.

واجتاز الغرفة ببضع خطوات واسعة ليقف بجانبها.

شعرت به قريباً منها، فأشاحت بنظرها. جاهدت كيلا تشعر بشيء نحو مات، وها هي ذي الآن تشعر فجأة بكل شيء، بالإعجاب، بالشوق... والحب؟

استدارت تواجهه وهي تعلم أنه سيرى الدموع في عينيها، وسيلاحظ ارتجاف شفتيها وهي تحاول الابتسام. كان من الصعب جداً أن تكون قوية وتقاوم سحره. كان رائعاً تماماً كرسومه الفريدة التي تتفجر حياة وهمست: «لقد أحببتها جداً، يا مات».

ـ هذا حسن.

كان هذا كل ما قاله، وهو ينظر إليها بحرارة ثم دنا منها فلمحت في عينيه شغفاً لم تعرف مثله من قبل.

ومرة أخرى شعرت شارلي أنها تذوب في بحر من المشاعر الحارة... وقد اكتسحها بسحره... حتى فقدت كل منطق وعقلانية.

ـ مات...

تمتمت بذلك بلهجة قصدت منها أن تضع حداً لهذا الجنون. ولكن عبثاً حاولت.

ـ تشارلي، تشارلي... أنا أحبك بجنون.

سرعان ما استجمعت ما تبقّى لها من إرادة وقالت له: «لا ينبغي لنا

هذا».

لكنه بدا مصمماً على أن يقنعها بالعكس، وسألها: «ألا يمكن اعتبار هذا موعدنا الثاني؟».

ارتسمت على شفتيها ابتسامة واهنة وهي تبتعد عنه: «مات لوكهارت، لماذا لست عجوزاً أصلع؟ أنا لم أحضر إلى البراري لأخرج في مواعيد غرامية مع رئيسي».

ـ لكنها ليست فكرة سيئة.

عاد واقترب منها فحاولت أن تتجاهل مدى شعورها بالسعادة.

ـ لقد سببت لك مشاكل مع تيد. لقد أخطأت في القدوم إلى هنا. جعلتك تظنني رجلاً عندما وظفتني.

ـ ابتدأت اعتقد أن أفضل غلطة ارتكبتها هي توظيفك.

ـ لكنك لا تعرف عني شيئاً.

فقال: «يمكننا أن نغير ذلك في لحظة. ألا تودين ذلك؟».

لن تستطيع السيطرة على نفسها طالما هو ينظر إليها بعاطفة محمومة. لكن ذلك ليس صواباً، ولن يكون صواباً أبداً. عليها أن تبتعد عنه الآن!

إن ضميرها يعذّبها وهي لا تستطيع احتمال تأنيب الضمير. وفي غمرة اليأس، صرخت وهي تغالب دموعها: «لا أود ذلك. آسفة يا مات».

وهذه المرة لم يقاطعها. اشتبكت عيناه بعينيها بجدّ تام وقالت متلعثمة: «أودّ كثيراً أن أبقى معك، ولكن ليس في هذه الظروف».

ـ ماذا تعنين؟ أي ظروف؟

ـ أنا... أنا لا أبحث عن علاقة غرامية لقضاء الإجازة.

ـ أنا أيضاً لا أبحث عن هذا بالضبط. ولكن، من يدري؟ ربما قُدِّر لنا أن نعيش علاقة جادة وليس مجرد مغامرة عابرة.

وأخذ يتأمل وجهها وعينيها وكأنه يريد أن يعثر فيهما على الجواب الذي يريده.

www.elromancia.com

بادلته تشارلي النظرات، آملة أن يتمكن من أن يقرأ في عينيها ما لم تجرؤ على قوله. وهو أنها قد تضحي بأي شيء لكي تبقى هنا وتحبه.

ـ أنت أجمل امرأة عرفتها، يا تشارلي. وظننت أن شعورك نحوي يماثل شعوري...

عضت على شفتيها: «وأنا أيضاً أراك جذاباً للغاية... ولكن... ولكن دعنا نفكر في ذلك أكثر قبل أن تجرفنا مشاعرنا».

وابتسمت بحزن ثم أضافت: «أنت رجل مميز حقاً، يا سيد لوكهارت».

ثم تنفست بعمق وعادت تنظر إلى اللوحة، قائلة: «أنا أحب هذه حقاً».

استدار ليحملق في اللوحة. واستغلت هي شروده فابتعدت عنه، وخرجت من الغرفة متجهة نحو كوخ الرعاة. وسمعته يناديها لكنها أكملت طريقها فلم يلحق بها.

***

في الصباح الباكر كان مات قد رحل.

على مائدة الفطور، لم تجرؤ تشارلي أن تسأل عنه. فأكلت بهدوء ثم غادرت المائدة باكراً. ولكن ما إن خرجت من المطبخ، حتى رأت آرش ينتظر على الشرفة.

ـ تشارلي، هلاّ كلّمتني دقيقة؟

أخذ قلبها يخفق وقد شعرت بالذنب. أتراه سيلقي عليها محاضرة؟

قدّم إليها كرسياً وهو متجهّم الوجه ثم جلس قبالتها، فسألته بما أمكنها من هدوء: «كيف لي أن أساعدك؟».

ـ يمكنك أن تكوني صادقة معي، يا آنسة بيل.

سألته وخفقات قلبها تتسارع: «بشأن ماذا؟».

فابتسم عابساً: «لا أدري ما هو سرك، لكنني أعلم أن لديك سراً».

انتصبت في جلستها، وتشبثت بذراعي مقعدها. يبدو أن آرش لا يتوقع أن يسمع اعترافاً فورياً منها، لذا بقيت صامتة، شاعرة بالذعر.

مال آرش إلى الأمام، مريحاً مرفقيه على ركبتيه، وتابع: «أعلم أيضاً أنك ومات يكفي أن ينظر الواحد منكما إلى الآخر حتى يخفق قلباكما».

خفضت بصرها شاعرة بالتعاسة.

ـ ربما تقولين في سرك إن هذا ليس من شأني ولعلك على حق، ولكن كلانا يعلم أنك سترحلين قريباً، يا تشارلي، وكل ما أرجوه هو ألا يؤلمك ما يحدث بينكما أو يؤلم الشاب الذي أحبه أكثر من ابني.

بعد ليلتين أرقّها فيهما الشعور بالذنب، أصبحت من الضعف بحيث لم تستطع احتمال هذه الضربة المباشرة فاغرورقت عيناها بالدموع.

بدا الكرب على آرش على الفور، فحاول أن يخفف عنها: «آسف، يا عزيزتي. لا تهتمي بي كثيراً».

لكنه وضع إصبعه على الجرح الذي آلمها منذ أتت إلى هذا المكان.

آرش على صواب، لأن لديها سراً وهو سيؤلم مات. في الطرف الثاني من الشرفة، انفتح باب المطبخ وخرج منه الشابان اللذان جاءا يلتمسان عملاً، فوجدت تشارلي حلاً لورطتها ما إن رأتهما. قالت: «لا تقلق يا آرش. أنا مثلك، لا أريد أن أحزن رئيسك. لقد جئت إلى هنا في مغامرة مثيرة بسيطة في البراري، لكن الأمور تزداد تعقيداً كل يوم، لذا سأمنع ذلك الآن».

وأومأت باتجاه الرجلين، مضيفة: «لديك هنا بديلان عني وعن نيد، وستأتي شاحنة البريد هذا الصباح، لذا يمكنني الذهاب قبل عودة مات».

فبدا القلق على آرتش: «لم أشأ أن أخيفك إلى هذا الحد».

ـ كلامك منطقي.

ونهضت واقفة بتثاقل، ثم أردفت: «بلّغ مات أصدق تمنياتي. أنا واثقة أن هذين الشابين سيكونان أكثر نفعاً له مني، وأخبره بأن رحيلي هو لخيرنا وهو الأفضل».

www.liilromancie.com

ـ ربما من الأفضل أن تنتظري وتريه أولاً.

اقترح آرش عليها ذلك، مبدياً عدم الارتياح لهذا التحول المفاجىء في الأحداث. لكن تشارلي كانت تعلم أنها إذا رأت مات مرة أخرى، فستضعف أمامه وينتهي الأمر إلى ورطة أكبر.

ابتعدت قائلة: «هكذا ينبغي أن يكون الأمر يا آرش».

تمتمت بذلك ودموعها على وشك التدفق مرة أخرى، ثم توجهت إلى غرفتها لكي تحزم أمتعتها.

* * *

رد مات على آرش هادراً: «ما الذي تعنيه بأن تشارلي قد رحلت؟ وما الذي جعلها ترحل؟»

رمى آرش أمتعته بعنف ووضع يديه على وركيه، ثم قال:

ـ وصل الشابان بحثاً عن عمل، ورأت تشارلي أنهما سيكونان أفضل منها للعمل، لذا ذهبت.

ـ متى رحلت؟

ـ أمس صباحاً.

ـ ألم تحاول أن تمنعها؟

ـ كانت مصممة جداً.

أثار اللمعان الحذر في عيني آرش شكوك مات فسأله: «لكنك قلت لها شيئاً، أليس كذلك؟».

ـ عن ماذا؟

ـ وما أدراني؟ لكنني أراهن على أنك أخفتها لكي ترحل.

واستدار مات مغادراً الشرفة.

لم يستطع أن يصدق أن تشارلي رحلت. وكاد يجن وهو يتصور أنه لن يراها بعد الآن، ذلك أن امرأة سواها لم تسحره إلى هذا الحد. إنها رائعة الجمال، شجاعة، وملتهبة المشاعر، حتى إنه لم يتوقع قط أن يقابل امرأة مثلها... خصوصاً هنا في البراري. كان يعلم طبعاً أن هناك ما يزعجها،

ولكن، مع الوقت، سيتمكنان حتماً من حل أي مشكلة.

توجّه إلى مكتبه وراح يبحث بين كومة من الأوراق، إلى أن وجد ضالته. رقم الهاتف الذي اتصل به عندما وافق على استخدامها.

وجاءه الجواب: «مرحباً هنا سارا بيلامي».

ـ مساء الخير. معك مات لوكهارت.

ـ آه، سيد لوكهارت!

ـ هل تعلمين لماذا أتصل بك؟

ـ همم... هل تبحث عن تشارلي؟

ـ بالضبط. أين هي؟

ـ على متن الطائرة متوجهة إلى إنكلترا.

شتم مات بصوت مرتفع وكاد يقذف الهاتف على الجدار.

ـ آسفة، يا سيد لوكهارت، هي لم تخبرني الكثير. قالت فقط إن الأمور لم تنجح.

وسكتت سارا لحظة، ثم عادت تقول: «بدت متكدرة للغاية».

ـ أيمكنك أن تعطيني عنوانها في انكلترا؟

ترددت سارا كثيراً، فراح مات يبحث عن عذر.

ـ ألا تعيش في دربشاير؟ أريد أن أرسل إليها أجرها.

ـ آه، فهمت. يملك والداها منزلاً في دربشاير، وبما إنها ما زالت في إجازة أظنها ستكون هناك.

وترددت مرة أخرى ثم عادت تقول: «أظن أن ما من سوء في أن أعطيك عنوانهم».

اختطف قلماً وكتب تفاصيل عنوان منزل تشارلي بيل في انكلترا.

* * *

www.elromancia.com

٥ ـ حبيبتي مخادعة

أقفل مات سترته الجلدية ليصدّ رياح انكلترا القارسة ثم أخذ يحدق في الورقة الملطخة التي في يده، لكنه لم يكن بحاجة حقاً إلى مراجعتها، فهو يعرف تفاصيلها عن ظهر قلب. ونظر مرة أخرى إلى البوابة الحديدية الضخمة المزخرفة التي أمامه، الإسم المدون على الورقة هو نفسه الموجود على اللوحة النحاسية (الحقول الخضراء).

ولكن لا بد أن ثمة خطأ ما. فهذه البوابة تؤدي إلى طريق طويل مرصوف بالحصى ينتهي بمنزل ريفي فخم. ولا يمكن أن تعيش تشارلي بيل هنا!

تفحص خريطته ليتأكد من أنه لم يخطىء في الطريق. ولكن، لا، العنوان صحيح. عبس وألقى نظرة شاملة على الأرض داخل البوابة. رأى مرجاً واسعاً أخضر، وبركة ماء مستديرة ومنزل قديم فخم بثلاثة طوابق.

ذكرت سارا أن لدى والدي تشارلي أملاكاً، لكنه لم يتخيل أنها مزرعة بهذا الحجم. لم يستطع أن يتصور أن تشارلي التي يعرفها تعيش في منزل شبيه بالقصر، كهذا.

ولكن أمامه طريقة واحدة فقط لكي يتأكد من شكوكه فاندفع بدراجته البخارية المستأجرة، في الطريق المؤدي إلى قصر (الحقول الخضراء).

كان قدومه إلى انكلترا للبحث عن تشارلي مغامرة كبرى، فقد انعزل بنفسه مدة أسابيع قبل أن يلقي عليه آرش أخيراً محاضرة مطوّلة.

ـ اسمع يا مات، لقد تعبت منك، ومن صراخك وحدتك وزمجرتك مع الجميع. فأنت ترفس الأبواب وتدور في الأنحاء حزيناً مكتئباً منذ رحيل تشارلي.

ثم سحب حقيبة ثياب من تحت الطاولة وألقى بها عند قدمي مات:

ـ الرعاة سيهتمون بالعمل. ها هي حقيبتك وهذا جواز سفرك، فاذهب واشتر تذكرة سفر إلى انكلترا.

وها هو ذا الآن، يتوقف بدراجته عند اسفل درجات حجرية تقود إلى باب كبير مهيب.

رفع يده إلى الباب، لكنه انفتح قبل أن يطرقه.

وقف أمامه رجل متوسط السن، فابتسم مات بشجاعة، وقال:

ـ صباح الخير. هل لي أن أتحدث إلى السيد «بيل»؟

قطب الرجل وضاقت عيناه: «لا أحد هنا بهذا الإسم يا سيدي».

ـ آه، وماذا عن الآنسة، الآنسة تشارلي بيل؟

وكان الجواب تقطيبة آخرى وهزة من الرأس.

فقال مات محاولاً مساعدة الرجل المسنّ على التذكر: «لعلها تعمل في مكان آخر من المزرعة».

قد تكون عاملة في الإسطبلات؟ إنها ماهرة مع الجياد.

توقفت خلفه على الطريق المرصوف، سيارة رياضية فارهة، فضية اللون، وترجل منها رجل نحيل أشقر يرتدي بذلة عشاء رسمية، ثم سار بغطرسة من دون أن يلقي باتجاه مات أيّ نظرة. صعد السلم ودفع بقفازات القيادة ووشاحه الصوفي إلى الرجل الواقف بالباب وهو يقول بإيماءة مختصرة قبل أن يدخل المنزل:

ـ مساء الخير يا نورتون.

نظر مات إليه بذهول، ثم عاد ينظر إلى الرجل الذي يطوي الوشاح على ذراعه.

ـ نورتون؟ هل هذا اسمك؟

ـ نعم، يا سيدي.

فمد مات يده إليه: «وأنا مات لوكهارت سررت بلقائك».

ونظر نورتون إلى ساعته، قائلاً: «آسف لأنني لا أستطيع مساعدتك في العثور على الآنسة التي تبحث عنها».

تنهد مات وقطب جبينه قائلاً: «لا بد أن سارا بيلامي اعطتني عنواناً خاطئاً».

تقدم نورتون إلى الأمام وأخذ يحدق في الورقة التي في يد مات.

ـ هل قلت سارا بيلامي يا سيدي؟

ـ نعم. إنها ابنة عم تشارلي.

واتسعت عينا نورتون خلف نظاراته.

ـ يا لله... أظنك في المكان الصحيح رغم كل شيء.

وكان في صوته صدمة مكبوتة.

وفي تلك اللحظة تصاعد رنين ضحكة خلف نورتون في الردهة، ولمح مات ثوباً أخضر ترتديه فتاة رائعة الجمال تسير إلى جانب سائق السيارة الرياضية الفضية. كانت شفتاها الممتلئتان الناعمتان مصبوغتين وشعرها الذهبي مسرحاً بشكل فاتن يظهر بياض عنقها. كانت رائعة للغاية.

إنها تشارلي!

شعر مات وكأنه داس على لغم أرضي. نظر فاغراً فاه إلى المنظر الذي أمامه. أما هي فوقفت تحدق إليه مذهولة.

ـ مات؟

وشحب وجهها وحملقت فيه مصعوقة.

ـ يا لله، مات.

أخذت تحدق إليه وقد اتسعت عيناها في وجهها الشاحب وارتجفت ذقنها وشفتاها. ومدت يدها لتلمسه بحركة آلية، لكنها تذكرت أنها ما زالت مرتبطة بذلك الرجل الأشقر، فالتفتت إليه وهي توضح متلعثمة:

«جيريمي، هذا.. هذا مات لوكهارت، إنه صاحب ساندون وهي مزرعة ماشية ضخمة رائعة في أوستراليا. لقد تعارفنا أثناء وجودي هناك. مات... هذا جيريمي غروفس».

عندما تذكر مات أن يمد يده مصافحاً، انحنى عليه نورتون رئيس الخدم وهمس في أذنه: «إنه اللورد جيريمي غروفس».

بينما قال جيريمي ببرودة: «يسرني التعرف إليك، يا لوكهارت. اسمع، أيها الشاب، أنا آسف جداً لاستعجالي شارلوت بالخروج لحظة وصولك، ولكن لدينا تذاكر للأوبرا».

فرفع مات يده: «بكل تأكيد. تفضلا بالذهاب. لا تدعاني أعيقكما. كنت مارّاً فقط في هذه المنطقة ففكرت في إلقاء التحية على تشار... شارلوت».

ـ آه، يا مات. أنا آسفة جداً.

وتقدمت نحوه، ففاح منها عطر رائع.

طرف بعينيه باذلاً جهده لابتلاع الغصة التي شعر بها في حلقه وهو يجاهد ليقول: «ليس هناك ما يستوجب الاعتذار، فكيف لك أن تعرفي أنني سآتي على حين غرة».

وقال جيريمي يستحثها: «شارلوت، عزيزتي. ستتأخر».

ألقت نظرة ارتباك على مرافقها، ثم عادت تنظر إلى مات.

وسألته بصوت خافت ناعم: «هل تقيم بالقرب من هنا؟».

وتقدم نورتون إلى الأمام: «يمكنني أن أرتب إقامة السيد لوكهارت في فندق (موتور إن) في هذه المنطقة؟».

وابتسمت تشارلي وقد أشرق وجهها بتألق مفاجىء أذهل مات.

ـ هذه فكرة رائعة يا نورتون، جهز لمات غرفة.

فأجابها نورتون: «حسناً جداً».

وعادت تشارلي تبتسم مرة أخرى ثم ركضت لاحقة بجيريمي.

عندما أخذ نورتون ومات يتابعان بنظراتهما السيارة الفارهة التي

www.elromancia.com

انطلقت مسرعة، قال رئيس الخدم: «يبدو أنك وجدت فتاتك «تشارلي بيل» يا سيد لوكهارت».

هز مات رأسه وتنهد: «لا، يا صديقي. أخشى أن أكون قد وجدت فتاة مختلفة تماماً».

تنحنح نورتون وقال: «أي «اللايدي شارلوت بيلامي» في الحقيقة».

مضت لحظة مؤلمة حدق فيها مات إليه.

- اللايدي شارلوت؟ هل هي لايدي؟ أتعني أن أباها دوق أو ما شابه؟

- إنه إيرل.

- تباً لكل ذلك!

وحملق مات في سيارة اللورد غروفس الرياضية وهي تخرج من البوابة ثم التفت إلى الرجل وقال بصوت متهدج: «وأي دور كانت تلعبه في مزرعتي متنكرة بشكل راعية؟».

وشتم مرة أخرى بصوت منخفض هذه المرة، وسار نحو الباب وهو يضرب راحته بقبضة يده الأخرى.

هز نورتون رأسه وتنحنح بعدم ارتياح.

- والآن يا سيدي، والدا اللايدي شارلوت ليسا في البيت هذا المساء لسوء الحظ. ولكن إذا رافقتني فسأريك غرفة الجلوس ثم أجهز لك غرفة تقضي فيها ليلتك.

فهتف مات: «هذا مستحيل. آسف يا نورتون، لا أريد أن أكون فظاً. وشكراً لك لهذا العرض، لكنني لا أستطيع المكوث هنا.

انحنى نورتون بأدب، وسأله: «هل يمكنني أن أنصحك بالنزول في فندق موتور إن؟».

- أظن أنه من الأفضل أن أخرج من المنطقة بأسرها. حضوري إلى هنا كان أكبر غلطة ارتكبتها في حياتي.

فقال نورتون مفكراً: «يا سيد لوكهارت. لقد عرفت اللايدي شارلوت

منذ ولادتها. هل لي أن أكون من الوقاحة بحيث أقول إنني لم أرها قط تنظر إلى أي شخص بطريقة...».

وتنحنح مرة أخرى.

- دعني أحجز لك في هذه المنطقة. لقد فات الأوان لكي تحجز في فندق آخر ليلة الجمعة.

* * *

أخذ مات يعبث بكوب العصير وهو يحدق إلى الأرض بكآبة.

أي أحمق جعل من نفسه بمجيئه إلى هنا؟ هو في العادة رجل عملي لا يميل إلى التخيلات. إذاً ما الذي جعله يفكر أن بإمكانه أن يقفز إلى الطائرة، ويدور حول الكرة الأرضية ليجد أن تشارلي ستسقط بين ذراعيه على الفور عندما يفاجئها؟

لقد مضت أسابيع لم يذق طعم النوم فيها، أسابيع وهو يفكر فيها، متخيلاً رائحتها وشعوره نحوها، متخيلاً رقتها وحيويتها. وكل ذكرى كانت تجعل جسده يتوتر بشكل لا يطاق.

كان واثقاً تماماً من حقيقة مشاعرها نحوه. فهو لم ينظر قط إلى عيني امرأة ووجدها تبادله النظر بمثل تلك الحرارة والرقة والشوق. لذا قرر أن يأخذ زمام المبادرة، أو يفقدها إلى الأبد.

أسند رأسه بين راحتيه محاولاً تخفيف الألم الذي ينهش قلبه. كيف خدعته؟ فتاته تشارلي الجميلة المليئة بالحيوية تحولت إلى امرأة باهرة الجمال لا يمكن الوصول إليها، مختلفة المنشأ والثقافة ونمط الحياة، وتقريباً من عصر آخر.

ما الذي هدف إليه من وراء ذهابها إلى سانداون؟ لقد حان الوقت ليفكر في ما عليه فعله.

لم يكن أمامه في الحقيقة أيّ خيار. غداً سيذهب لمقابلة تشارلي ليعرف الحقيقة منها. سيتلقى الخبر بهدوء، ولكنه سيقول ما يريد أيضاً.

تذكر الطرد الذي أحضره معه طوال الطريق من الطرف الآخر في

العالم. مهما كانت الظروف عليها أن تحصل عليه، فهو لها وليس لأحد آخر. سيقدم لها الهدية ويقول لها كم كان ادعاؤها ذاك غبياً أحمق، فيخرج من صدره ذلك الاحباط ويخرج من حياتها إلى الأبد.

* * *

عادت تشارلي إلى مقعدها الجلدي في سيارة جيريمي، شاعرة بالسرور لأنها ستعود إلى بيتها أخيراً. كانت رفيقة كئيبة نوعاً ما هذا المساء، فطوال عرض الأوبرا، كانت تفكر في مات.

كانت أفكارها مشبعة بقصة امرأة انكليزية تحب رجلاً استرالياً. في الحقيقة، لم تتوقف عن التفكير فيه طول الشهر الماضي.

ففي كل مناسبة، كانت تشارلي تجد سبباً للتفكير في مات. وما إن أوقف جيريمي السيارة أمام منزل تشارلي حتى راح يتقرّب منها بابتسامة غرور، فرأت في ذلك عملاً غير أخلاقي، وابتعدت عنه.

وتمتم، وهو يقترب منها: «والداك ما زالا في منطقة البحيرات أليس كذلك؟».

فأجابت بحدة: «سيعودان غداً».

فقال بإلحاح: «ولكن ليس الليلة».

ـ لكن ضيفي هنا.

ـ ذلك الأسترالي؟

ـ نعم.

ـ وماذا في ذلك؟ لا بد أنه نائم. وسنكون وحدنا.

قالت بلهفة: «قد يتأخر مات عن الطائرة لذا لا بد أنه مستيقظ تماماً الآن ينتظر أن يحين الوقت».

وتمسكت بمقبض الباب تفتحه فانفتح بسهولة ما أشعرها بالارتياح.

ـ شكراً لهذه الأمسية الرائعة.

ثم منحته ابتسامة ناعمة وهي تخرج من السيارة.

ذهل جيريمي لتصرفها الغريب هذا. كان هذا ثالث موعد لهما،

فكيف يريد أن تصبح علاقتهما أكثر حميمية منذ الآن؟

أغلقت باب السيارة بحزم، ملوحة له بيدها.

لكنه لم يرد عليها، وانطلق بالسيارة غاضباً. لم يكن لدى تشارلي وقت تتأمل فيه شعور رفيقها المجروح فقد هرعت بخطوات مرحة وقلب أكثر مرحاً إلى البيت. وكالعادة كان نورتون العجوز الطيب في انتظارها. سألها عن الأوبرا، لكن تشارلي تجاهلت السؤال وسألته: «هل مات نائم؟».

لكنه أدهشها بجوابه: «ليس لديّ فكرة».

فصرخت بنفاد صبر: «لا تكن أحمق يا نورتون. أين هو وفي أي غرفة أنزلته؟ يجب أن أتحدث إليه».

ـ لكنه، يا لايدي شارلوت، ليس هنا. لم يقبل البقاء.

فقطبت حاجبيها: «ماذا تعني؟».

ـ بدا السيد لوكهارت متكدراً جداً. لقد فضّل الذهاب إلى فندق «موتوران».

ألقت بنفسها على درابزين السلم الخشبي الملمع. وقالت بآهة رقيقة: «هكذا إذن».

ـ نعم، في الواقع.

ولم يزد القول في هذا الشأن، واغرورقت عيناها بدموع مفاجئة استحال عليها كبحها.

ـ أتظنه كان يبدو متكدراً جداً؟

فأجابها برقة: «نعم مع الأسف».

ـ إذن علي أن أتصل به.

ـ لكن الوقت متأخر جداً الآن. أظن أنه من الحكمة الانتظار حتى الصباح.

فأخذت تغالب دمعها.

ـ هل أعدّ لك عشاءً خفيفاً؟

www.elromancia.com

ـ لا. لا يا نورتون. وشكراً. سأذهب... سأذهب إلى فراشي. تصبح على خير.

وبدون أن تدعه يرى القنوط المرتسم على محيّاها، استدارت تركض صاعدة السلم وهي ترفع تنورتها أمامها، متمنية من كل قلبها لو تعود «تشارلي بيل» مرة أخرى.

* * *

استيقظت عند الصباح قلقة، متوترة الأعصاب وأول ما فكرت فيه كان مات. كان دوماً يستيقظ باكراً لذا فكرت أن تتصل به على الفور.

ارتدت بنطلوناً وكنزة وردية، ثم نزلت إلى الردهة في الطابق الأسفل. أخرجت الرقم من دليل الهاتف بلهفة، ثم طلبته بأصابع مرتجفة.

ـ صباح الخير. فندق «مونور إن»؟

مضت لحظة ذعر على تشارلي، فهي على وشك الاتصال بمات من دون أن تفكر بما تريد أن تقول. هل عليها أن تبدأ بالاعتذار؟

ـ هل يمكنني أن أتحدث إلى السيد لوكهارت من فضلك؟

ـ آسفة لأن السيد لوكهارت رحل منذ نصف ساعة.

رحل؟ ونظرت تشارلي إلى سماعة الهاتف مذهولة. ولكن لا يمكن أن يكون مات قد رحل. لا يستطيع أن يرحل دون أن يراها. عليهما أن يتحدثا معاً. وسألت موظف الإستقبال: «هل ترك عنواناً للاتصال به؟».

ـ لا. مع الأسف. لم يفعل.

لقد فقدته!

شعرت تشارلي وكأنها سقطت من مكان مرتفع للغاية، وضعت السماعة بعنف، ثم ضغطت على معدتها بيد، ووضعت اليد الأخرى على فمها لتصدّ شهقات خيبة الأمل التي أصابتها.

ـ لايدي شارلوت.

صوت نورتون الرقيق خلفها جعلها تستدير إليه: «نورتون. لقد رحل».

صرخت بذلك ثم سقطت على المقعد خلفها، عاجزة عن كبح دموعها. وهي تشهق قائلة: «كنت أريد أن أعتذر إليه».

ـ كفى، كفى.

تمتم بذلك بصوته الرقيق، تماماً كما كان يفعل عندما كانت طفلة.

ـ لقد ارتكبت غلطة فادحة عندما كنت في استراليا أنا... أنا...

فقال بلطف: «سافرت متخفية باسم مستعار؟ تظاهرت بأنك فتاة بسيطة من دون لقب واسمها تشارلي بيل؟».

ـ أشعر بالذنب بشكل رهيب وكذلك بالتشوش والارتباك.

همست بذلك وبقيت دقائق مطرقة بتعاسة، تاركة دموع تعاستها تنهمر بغزارة.

جاء مات من أستراليا ليراها. وكم كان فظيعاً اكتشافه خداعها! لم تستطع أن تلومه لأنه غضب، ورحل على الفور. ولكن، يا الله، كيف يمكنها أن تحتمل هذا؟

وعادت تشهق باكية.

ـ هل من أحد هنا؟

انطلق هذا السؤال بلهجة استرالية مميزة.

ارتفع رأس تشارلي بعنف فقابلت عيناها الدامعتان عيني نورتون الغامزتين وهو يقول بابتسامة ذات معنى: «هناك شخص عند الباب».

وأسرعا معاً نحو الباب وتشارلي تجفف دموعها بظهر يدها.

وقف مات عند الباب حاملاً تحت إبطه طرداً أسمر. بدا متعباً، ولكن رائعاً... رائعاً تماماً.

أخذ قلب تشارلي يخفق وهي تشك في قدرتها على الكلام. وشكرت لنورتون أن استلم عنها واجب التحية.

ـ صباح الخير يا سيد لوكهارت.

فأجاب مات عابساً: «صباح الخير. أردت أن أحضر هذه».

وأمسك بالطرد أمامه متجنباً النظر إلى تشارلي.

www.elromancia.com

فقال نورتون وهو يتناول الطرد بعناية: «بكل تأكيد يا سيدي. سأهتم بهذه».

تحوّلت نظرات مات الآن إلى تشارلي ببطء. كان وجهه شاحباً وقد بدا الحزن في عينيه فشعرت بالذنب لعمق الصدمة التي سببتها له.

قال لها مشيراً إلى الطرد: «إنه لك، ولكن يمكنك أن تنظري إليه فيما بعد. أريد أن أخرج من صدري أمراً أو أمرين ثم أرحل من هنا».

حاولت أن تتكلم، لكن الكلمات ماتت على شفتيها. قال نورتون: «لماذا لا تأخذين السيد لوكهارت إلى الغرفة الشرقية؟ بينما أحضر أنا بعض الشاي والكعك».

فقالت متلعثمة: «ن... نعم. هذه فكرة حسنة يا نورتون».

تقدّمت أمامه وهي ترتجف: «من هنا».

تمكّنت من السير، بشكل ما، من دون أن تنهار ساقاها.

وعندما دخل الغرفة الفسيحة المشمسة. نظر حوله، مقيماً الأثاث الأثري الأنيق، والمزهريات المليئة بالأزهار الغضة والنوافذ الطويلة التي تطل على الفناء. ثم استقرت عيناه على اللوحات الأنيقة المعلقة... لكنها كانت تعلم أنه ليس هنا ليتفرج على مجموعة أبيها الفنية.

وأخيراً وجدت الشجاعة لتقول: «آسفة جداً يا مات».

ـ وأنا أيضاً.

قالت وهي ترجو بلهفة أن يصدقها: «لم أشأ أن أؤلمك. يمكنني أن أفسر الأمر».

أحنى رأسه بصمت وكأنه يطلب منها الإفاضة في الكلام. فقالت ويداها متصلبتان إلى جانبيها: «أردت خوض مغامرة... مغامرة في البراري. ولكن لو ذهبت بصفتي اللايدي شارلوت، لوجد الناس طريقة ما ليبعدوني عن حياة البراري الحقيقية. أردت أن أتذوق الأشياء كما هي وأن أكون فتاة عادية».

ـ لكنك قلت إنك جئت إلى استراليا لتحققي حلماً.

ـ هذا صحيح.

أومأت برأسها باحتراس.

بقي هو لحظة طويلة صامتاً، قال بعدها بلطف: «كما رأيت، وقع ما لم تتوقعيه... وهو أنني وقعت في غرامك».

تكلم ببساطة وصدق جعلاها تشعر بقلبها يهبط إلى قدميها.

ـ وأظنك علمت هذا.

وشبك ذراعيه على صدره ببطء وهو ينظر في عينيها، ثم أردف:

ـ وليس من عادتي الوقوع في الحب.

قالت وهي تخطو متعثرة نحوه: «طبعاً لا».

لكنه أبدى من الجدّ والتوتر ما جعلها تتوقف.

ماذا بإمكانها أن تقول؟ منذ اللحظة التي وضعت فيها قدمها في إنكلترا، كانت واثقة تماماً من أنها تحبه، هي أيضاً.

وتابع هو بصوت خشن لم تسمعه منه من قبل: «المشكلة هي أنني وقعت في حب وهم خداع».

وتجاهل صرخة الاحتجاج الصغيرة منها وأردف قائلاً:

ـ لأن المرأة التي أحببتها لم تكن امرأة ذات لقب ومنزل فخم، ورئيس خدم وحبيب عالي المقام.

وأسرع في كلامه كأنه يريد أن ينهي الأمور بسرعة.

ـ الفتاة التي أحببتها روح طليقة تقوم بأي شيء. فتاة شجاعة ترعى المواشي وتعتني بها في الحظيرة وتحمي سمعتها بقبضتها، إذا اقتضى الأمر.

وسكت، ثم أضاف بنعومة: «كانت تلك تشارلي بيل».

رفعت بصرها لتقابل عينيه محاولةً التحلي بالشجاعة.

ـ مات، إعلم فقط أنني لم أقصد خداعك.

ـ هذا غير صحيح! فقد تعمدّت خداعي.

فأجفلت، وردّت: «حسناً، نعم. أظنني خططت لهذا الخداع عندما أردت تلك الوظيفة والمغامرة في البراري. ولكن على المستوى

الشخصي... عندما علمت بشعوري... بشعوري نحوك...».

وقفزت إلى عينيه نظرة رقيقة فتوقف قلبها عن الخفقان. وتابعت تقول: «لقد حاولت جاهدة أن أقاومك كما أنني لم أشأ أن تقع في حب تشارلي وهي... غير موجودة. آه، يا مات. لم أعرف ما عليّ أن أفعل».

صرخت بهذا وهي تتعثر متقدمة نحوه، ودموعها تنهمر على وجنتيها.

ولكن وقفته الحازمة، والنظرة المتصلبة التي عادت إلى عينيه منعتاها من الاقتراب منه أكثر.

وجاء من عند الباب صوت نحنحة.

نظرت تشارلي من خلال دموعها، إلى نورتون الذي كان يحمل صينية.

- لقد وصل اللورد غروفس. هل أبقيه في...

- لا لن تبقيه في أي مكان.

واندفع جيريمي وقد احمر وجهه، متجاوزاً رئيس الخدم.

انتقلت نظرة جيريمي الغاضبة من عيني تشارلي الدامعتين إلى مات.

- ما الذي يحدث هنا وما الذي فعلته لكي تكدّر شارلوت؟

- مات لم يكدرني.

وكانت تحاول أن تشرح له الأمر.

- بل فعل هذا طبعاً.

صرخ جيريمي وهو يجرها نحوه، فحررت ذراعها من يده وهي تقول ضارعة: «لا تضخم الأمور».

لكن الرجلين وقفا يحملقان في بعضهما البعض، والغضب بادٍ في عيونهما وشخر جيريمي قائلاً: «بل سأضخم الأمور، وسأطرد هذا الشخص من المزرعة».

- وكيف ستفعل ذلك؟

وتألقت عينا مات وشد قبضته إلى جانبيه. وأخذت شارلي تدعو الله لئلا يضربه. إنه غاضب جداً.

ازداد احمرار وجه جيريمي وانتفخ صدره أما مات فقد تابع تحديه الساخر.

- أظن أن لديك الكثير من الخدم. يمكنك أن تطلب منهم أن يطردوني. أو لمَ لا تخرج وتستدعي اثنين من حملة الهراوات؟

- كفى!

صرخت تشارلي وهي تقف بين الرجلين، وتمد ذراعيها لتهدئهما.

- هذا غير ضروري.

فقال مات بحدة وهو يبتعد عنها: «بل هو ضروري بكل تأكيد. لم أشأ أن أبقى هنا أكثر من ذلك. وقد قلت ما جئت لأقوله».

واشتبكت نظراته الكئيبة بنظراتها في لحظة عذاب قبل أن يهز رأسه بحزن، ثم يدير ظهره ويغادر الغرفة متحدياً.

- مات، لا تذهب!

صرخت تشارلي عاجزة عن رؤيته يرحل. وسارت في الغرفة متعثرة، لكن جيريمي أمسك بذراعها وجذبها إلى الخلف.

- ليس سوى شخص وضيع. دعيه يذهب يا حبيبتي.

فصرخت به بعنف: «أنت لا تعرف شيئاً عنه».

وأخذت تكافح لتخلص نفسها منه وهي تصيح مرة أخرى «مات».

- من الواضح أنه راعي بقر لا يعرف سوى استعمال قبضتيه.

- كيف تجرؤ!

واستطاعت أخيراً أن تحرر يديها من قبضته ثم ركضت خارج الغرفة، فتبعها جيريمي.

وصلا إلى الباب الأمامي في الوقت الذي انطلقت فيه دراجة مات بهدير غاضب، وتمتم جيريمي: «لا رده الله».

فصرخت به باكية: «إخرس».

كانت غاضبة، محبطة ويائسة وشعرت بدمها يغلي، وعندما رأت وجهه يزداد احمراراً صرخت به:

www.elromancia.com

- في الواقع، يا جيريمي، لمَ لا ترحل... لماذا لا تذهب لتقوم بشيء تحسن فعله حقاً؟ مثل أن ترفس فلاحاً، أو تهدم كوخ عامل؟

فتح جيريمي فمه ثم عاد فأقفله بحزم.

- لايدي تشارلوت، هل تريدينني أن أرافق اللورد غروفس إلى سيارته؟

فهمست شارلي شاعرة أنها على وشك الانهيار: «آه، يا نورتون. شكراً. سيخرج حالاً».

وبقلب بارد، أخذت تنظر إلى وجه جيريمي وكتفيه وهما يتصلبان قبل أن يتبع نورتون إلى خارج المنزل. عادت تشارلي تذرع الغرفة الشرقية محاولة أن تستعيد ما قاله لها مات قبل قليل. مات يحب تشارلي بيل.

أراد جزء صغير من قلبها المحطم أن يضحك ويقفز فرحاً لدى تفكيرها بذلك، لو أن بإمكانها فقط أن تكون تشارلي بيل!

وغاصت في أقرب كرسي وأخذت تفكّر. لقد أحبت مات لوكهارت وهي واثقة من ذلك، وربما لن تتوقف عن حبه أبداً. وما أفظع أن تمضي بقية حياتها وهي عاجزة عن التفكير في مات.

ماذا لو أنها لم تكن «لايدي» انكليزية؟ ماذا لو أن أسلافها لم يثقلوا كاهل أسرتها بهذا البيت الذي يشبه قصراً أبيض فخماً؟ ماذا لو كانت حرة في اختيار شريك حياتها؟

- لايدي شارلوت.

رفعت بصرها لترى نورتون واقفاً أمامها وتحت ذراعه لوحة زيتية.

- ما الذي ستفعله الآن يا نورتون؟ تبدأ بتنظيف المنزل لفصل الربيع؟

- ظننت أنك ربما تودين رؤية هدية لوكهارت.

***

٦ - زوج وامرأتان

- أحضر لي مات لوحة؟

وانتصبت شارلي في جلستها عندما وضع نورتون اللوحة على رف المدفأة أمامها. كانت تلك اللوحة التي عشقتها، لوحة الينبوع... ينبوعهما.

عادت الدموع تترقرق في عينيها حتى كادت تمحي ألوان البراري الحية النابضة بالحياة من أمامها. عندما حدقت في لوحة مات، استطاعت أن تشعر بحرارة الشمس اللاهبة في الصخرة التي جلست عليها واستطاعت أن تشعر بنظراته تتأملها مرة أخرى.

- آه، يا نورتون. أليس فناناً مذهلاً للغاية؟

- إنه رائع تماماً.

وبعد أن وقف بجانبها فترة، محدقاً بالرسم بعطف صامت، غادر الغرفة على أطراف أصابعه تاركاً تشارلي لذكرياتها.

وكم كانت مؤلمة ذكرياتها تلك. لقد شعرت مع مات عند الينبوع، بتكامل لم تشعر به قط من قبل، وكأنها انتظرت طوال حياتها لكي تكون في ذلك المكان، مع مثل هذا الرجل. وجوده قربها جعلها تتذوق طعم السلام والسكينة وانعدام الزمن الذي توحي به هذه الصخور العتيقة.

عندما فكرت في أن النفق والكهف والينبوع بعيدة عنها الآن، خطر لها أنه لا يمكن أن يكون هناك اختلاف بين عالميهما أكثر من هذا، ومع ذلك

www.elromancia.com

هي «ومات» لديهما ماضٍ ومسؤولية...

وشعرت بقلبها يتمزق.

ليت هناك قواعد للوقوع في الحب، لاستطاعت تجنّب هذا المأزق. لكنها دخلت بمرح حياة رجل وخرجت منها خلال أسابيع. وها هما الآن، مفطورا القلب وما بيدهما حيلة.

وستبقى دهراً طويلاً... تبكي بمرارة.

صعدت إلى الحمام في الطابق الأعلى لتغسل وجهها، وعندما عادت إلى الطابق السفلي، اكتشفت أن والديها قد وصلا. ووجدت أباها في الغرفة الشرقية مأخوذاً باللوحة المرسومة.

- شارلوت، حبيبتي، تعالي واخبريني كل شيء عن هذا العمل الرائع.

- كيف حال أمبلسايد يا أبي؟

فأجاب بغموض: «غاية في الجمال يا عزيزتي».

وقبّل ابنته قبل أن يعيد اهتمامه إلى لوحة مات.

- أخبرني نورتون أن شاباً استرالياً رسم هذه وقدّمها لك.

- نعم.

اعترفت بذلك ممتنية لو أن قلبها لم يخفق بهذا العنف لمجرد ذكر مات.

- ما رأيك فيها؟

- رائعة. استخدام هذا الفنان للألوان يدل على إحساس بالغ، ويبدو أنه توصّل بشكل ما إلى جوهر هذا المكان الروحاني.

فقالت برقة: «هذا صحيح تماماً».

- إنها مثيرة للاهتمام.

ونظر إليها بفضول، ثم سألها: «أين قابلت ذلك الشخص؟ في سيدني؟».

فقالت محاولة أن تبقى هادئة: «إنه في الواقع يعيش بالقرب من حدود

«كوينزلاند»، في مزرعة مواشي تدعى «ساندراون»».

- يا إلهي، وهذ المشهد هو في أرضه؟

- نعم.

- يا له من اكتشاف، يا شارلوت، أنت فتاة ماهرة. ما اسمه؟

- اسمه مات.. ماتيو لوكهارت.

وبشكل ما، نطقت الاسم دون أي تلعثم أو توتر.

- لديه لوحات كثيرة أخرى، بعضها كبير الحجم، وكلها ممتازة.

- وهل يريد بيعها هنا في أوروبا؟

- لا أدري. لم نتحدث في هذا الأمر.

- لم تتحدثا؟ ماذا حدث لك يا فتاة؟ هل فقدت خبرتك؟ هذا عمل جديد مميز وذو شأن. نريد أن نكسب هذا الشخص إلى جانبنا قبل أن يسبقنا إليه شخص آخر. يمكنني أن أجمع له ثروة.

- لست واثقة أنه يريد ثروة.

- طبعاً هو يريد ذلك. الجميع يريد المال. إنه بحاجة إلى وكيل جيد.

- أنت طبعاً.

قالت له تشارلي هذا بابتسامة باهتة. كانت تعلم أن أباها يفكر في عمولة جيدة يمكنه أن يحصل عليها من بيع لوحات مات... وربما مع الوقت، سيجمع من ذلك ما يكفي لإصلاح منزله من دون أن يتعامل مع تاجر اللوحات المسروقة.

- هذه الموهبة بحاجة إلى تغذية وتشجيع... أخبريني المزيد عن ذلك الشخص الرائع الذي عثرت عليه؟ كم يبلغ عمره؟ أرجو أن يكون صغير السن لكي يكون لديه وقت كثير لينضج ويتطور.

بدأت تشارلي تشعر بالإنهاك بعض الشيء. ذلك أن الحديث عن «مات» وكأنه مجرد فنان وليس أهم شخص في حياتها، صعب للغاية. أخذت نفساً مرتجفاً، وحاولت أن تجيب بعدم اكتراث.

- إنه... إنه في الثلاثينات من عمره. لم أسأله بالضبط.

www.elromancia.com

حوّل أبوها انتباهه من الرسم إلى ابنته، وسألها: «شارلوت. ما الأمر يا عزيزتي؟».

أخذت تغالب دموعها: «أشعر بشيء من.. بابا، أنا تعيسة.. لقد وقعت في الحب».

فقال بتوتر: «رباه، تعالي واجلسي. لا يبدو عليك الإتزان».

وقاد ابنته إلى أريكة واسعة جلسا عليها معاً.

ـ أتريدينني أن أبحث الأمر مع أمك؟

فهمست: «فيما بعد. عندما أشعر بأنني أقوى».

أخذ يرفع بأصابعه الطويلة، شعرها عن خديها ببطء ورقة.

ـ والآن أخبريني لماذا الحب يجعل فتاتي الصغيرة تعيسة إلى هذا الحد؟

فتنهدت: «لأنني أحببت الرجل غير المناسب».

فتهدج صوته قليلاً: «وما عيبه؟ أليس شاباً لائقاً مهذباً؟»

ـ بل هو بالغ اللباقة والتهذيب.

ـ هل يعمل؟ هل يمكنه أن يعيلك؟

ـ نعم. ليست هذه هي المشكلة.

ـ هل يحبك؟

فقالت بصوت باكٍ، وهي تضغط على عينيها بيديها، مصممة على عدم البكاء مرة أخرى: «نعم، إنه، على الأقل أحب تشارلي بيل، لكنني لست واثقة من أنه تأثر بشارلوت بيلامي».

ـ أرجو المعذرة؟ لم أفهم.

كان حائراً طبعاً.

ـ يا عزيزتي ما هذا الذي تقولينه وماذا تعنين؟

أخبرته بالقصة المؤسفة. وأصغى إليها أبوها إلى النهاية.

ـ كنت أعرف منذ صغري أن عليّ أن أتزوج بشخص مثل جيريمي يملك مالاً ولقباً، وأنّ هذه هي الطريقة الوحيدة لإنقاذ بيتنا.

والآن، جاء دور أبيها ليفتح فمه ذاهلاً، ورأت الألم في عينيه. وضع ذراعه حول كتفيها يهدئها عدة دقائق ثم قال:

ـ يا حبيبتي، كل ما نريده أنا وأمك هو أن تكوني سعيدة، ربما جعلناك تفهمين العكس. افترضنا أن سعادتك في انكلترا ولكنني في الحقيقة لطالما عرفت أن نظرتك إلى الحياة مختلفة وأنك تريدين مطاردة أحلامك...

فقالت بجمود: «قضيت على كل فرصة لذلك. فقد كذبت وخدعت...».

ـ لقد خذلناك يا عزيزتي، ما كان عليك أن تصلي إلى هذا الحد بحيث تخفين ما أنت متلهفة إليه.

ـ وأنا الآن خذلت مات. لا أستطيع احتمال ذلك. جاء إلى هنا باحثاً عني وإذا بي... إذا بي...

ضغط أبوها على كتفيها مطمئناً، وقال: «أفهم من هذا أن مات هو لوكهارت الفنان؟».

وتحولت عيناه إلى اللوحة التي أعجبته جداً.

فقالت هذا بابتسامة حزينة: «هو بنفسه».

لمعت عينا أبيها بسرور لم يستطع إخفاءه، وجذب رأسها إلى كتفه وأخذ يداعب شعرها متنهداً.

ـ لعله ليس من النوع الذي يصفح وينسى بسهولة، وأخشى أن تصادفي المزيد من خيبة الأمل عندما تعودين.

ـ أعود؟

وتنهدت. ما أجمل التفكير في القفز إلى طائرة تعيدها إلى استراليا. ولو عرفت أن هناك فرصة واحدة لأن تجد مات مسروراً لرؤيتها، لما ترددت. ولكن نظراً لعناد مات وكبريائه...

ـ طبعاً يا عزيزتي. عليك أن تذهبي إلى لوكهارت وتحاولي أن تصلحي الأمور بينكما، أليس كذلك؟

www.elromancia.com

ـ لا أدري ما إذا كان لديّ ما يكفي من الشجاعة. وأشك في أن النتيجة تستحق العناء.

همست بذلك وهي تفكر في عيني مات الغاضبتين وهو يبتعد عنها مسرعاً.

ـ أنت شجاعة طبعاً. وأنا أعرفك جيداً. ستذهبين.

وطبع قبلة على جبينها.

* * *

كان مات يرسم عاصفة. وراحت فرشاته تتحرك بمشاعر محمومة على القماش. لم يرسم قط بهذا الشكل من قبل، ساكباً كل مشاعره بانفعال بالغ. فالرسم، عادة، يخفف عنه ويهدئه.

واليوم، كلما زاد ما يرسمه، ازدادت مشاعره سوءاً. لكنه لم يستطع التوقف، فقد كان يعتريه يأس كبير، وصورة تشارلي لم تفارق ذهنه لحظة.

لم يتمكن من تحرير نفسه من الصدمة التي تملكته عندما اكتشف أنها في الحقيقة اللايدي شارلوت بيلامي. لو وصل إلى إنكلترا وأخبره نورتون أنها اختفت، لكانت الصدمة أخف وطأة من رؤيتها مع ذلك الحقير «اللورد غروفس» ومرتدية ذلك الثوب الأخضر الرائع.

حاول أن يجمع بين تشارلي بيل وتلك اللايدي الإنكليزية، مازجاً على القماش صورة شارلي كما عرفها في بنطلون ركوب الخيل والجزمة الطويلة، وضفيرتها الناعمة البنية اللون على كتفها، وصورة اللايدي شارلوت بشعرها الذهبي وثوبها المخملي وبشرتها البيضاء. ربما عندما ينتهي سيكون قادراً على التخلص منهما معاً.

كان يعمل في غرفة خاصة بالرسم أضافها إلى منزله الريفي منذ سنوات. وقد تناثرت في الأنحاء حاملات اللوحات، ولفائف قماش الرسم وعلب الدهان، وأحجام مختلفة من الأطر.

ولكي يسهل الحركة عليه خلع مات قميصه وألقى به على مقعد

قريب. فعندما يبذل جهداً بالغاً في الرسم، مثل الآن، كان يفضل أن يتحرر من كافة القيود.

قاطع تركيزه على العمل نباح كلب، فرفع نظره مقطباً. كانت أذناه معتادتين على الأصوات المألوفة في هذا المركز في البراري... ولكنه سمع صوت عربة تقترب.

إنها شاحنة البريد من دون شك. لكن آرش سيستلم البريد ويشرب الشاي ويثرثر مع الساعي، فقد ترك مات تعليمات حازمة بألا يزعجه أحد.

أخذ لوناً داكن الخضرة مزجه بلون أسود، وملأ بها الظلال على ثوب اللايدي شارلوت المسائي. كانت الظلال تجعل الأنوثة في قوامها تتفجر بالحياة والحرارة، واستيقظت في نفسه ذكريات أليمة، ولكن كان عليه أن يستمر. وعندما ينتهي من هذه اللوحة، يكون قد انتهى من شارلي بيل.

سمع وقع قدمي آرش الثقيل على الشرفة متوجهاً ليقابل ساعي البريد. مسكين آرش، فقد بدا حزيناً للغاية عندما عاد مات من انكلترا وحده، إذ أمل أن يعود رئيسه إليهم متأبطاً ذراع عروسه شارلي. ويا لها من مزحة!

وبدلاً من ذلك، عندما عاد مات، أمضى مع آرش أيام عدة يدوّنان قائمة النعم الكثيرة التي تحفل بها حياة العازبين من الرجال.

اختار مات فرشاة صغيرة، وراح يملأ الاخضرار في عيني تشارلي. وكما فعل بالثوب، أضاف درجة قاتمة ليعطيهما عمقاً. عمل دقائق عدة... ولكن إذا بيده تتجمد فجأة. لقد سرت في ظهره برودة الأشباح. ذلك أنه رآها تبادله النظرات.

اشتبكت عينا شارلي بعينيه في اللوحة. عينان كئيبتان قلقتان. عينان ما زالتا تريدانه. عينان مزقتا قلبه وعقله. وألقى بالفرشاة وهو يتأوه.

ورفع بصره. ما زالت العينان هناك... تحتلان مخيلته.

إنهما تنظران إليه من آخر الغرفة. طرف بعينيه وتسارعت خفقات قلبه. لم يستطع أن يعرف ما جرى لساقيه. بدا وكأن عظامهما نخرت.

ـ تشارلي؟

ـ مرحباً يا مات.

كانت واقفة عند عتبة الباب وعيناها كثيبتان قلقتان كنلك العينين اللتين رسمهما لتوه. وكان وجهها بالغ الشحوب.

ـ كيف... كيف جئت إلى هنا؟

التوت شفتاها الرائعتان بابتسامة متوترة.

ـ بالطريقة نفسها التي جئت بها إلى هذا المكان في المرة الأولى... في شاحنة البريد.

مرر أصابعه الملطخة بالألوان في شعره، بينما ازدادت خفقات قلبه، وقال: «يا لها من حماقة قمت بها».

وانحنى يتناول خرقة أخذ يزيل بها الألوان عن يديه، ثم قال من دون أن ينظر إليها:

ـ الأفضل أن تذهبي إلى المطبخ. أنا واثق من أن آرش سيقدم لك فنجان شاي. وبعد ذلك يمكنك أن تستقلي الشاحنة نفسها لترحلي مرة أخرى.

قالت بهدوء: «أنا لن أعود في أي شاحنة قبل أن أنهي عملي».

صوتها الحازم لطّفته لهجتها الإنكليزية الجميلة ما جعله ينظر إليها.

ـ وما هو ذلك العمل؟

ـ كان عليّ أن أحضر لأشكرك على تلك اللوحة.

ـ رسالة شكر صغيرة كانت لتفي بالغرض.

حاول أن يضحك فانتهى ذلك بابتسامة ساخرة.

خفضت بصرها فأخذ ينظر إليها مفتوناً وهو يرى أهدابها الكثيفة القاتمة تنسدل على وجنتيها، هاتين الوجنتين الورديتين كانتا سلاحاً فتاكاً جعل مات يشعر بغصة.

ـ أتيت من انكلترا لكي أتحدث إليك.

ـ نعم. أعرف كل شيء عن تلك الرحلة. لقد جربتها بنفسي وكانت مضيعة للوقت وجهداً بالغاً أيضاً.

ـ مات، جئت أطلب منك أن تصفح عني.

عليه أن يعترف بأنها شجاعة، إذ بينما هو يرتجف، وقفت هي أمامه هادئة باردة ببلوزتها البيضاء المدسوسة بأناقة في بنطونها الجينز، وشعرها المسدل على كتفيها. كان شعرها الآن ذهبياً بلون القمح.

وهذا المزيج الجديد بين شارلي بيل واللايدي شارلوت جدير بالاهتمام بالنظر! وقف ممسكاً بحزمة الدهان... وعيناه تتأملانها. خضرة عينيها بخضرة بحيرة الصخرة، وشفتاها وجدنا لتسلبا الرجال عقولهم.

لم يستطع أن يستمر في النظر إليها! فاستدار على عقبيه وسار مبتعداً إلى آخر الغرفة.

نظرت إليه تشارلي بقلب يرتعش خوفاً. رؤيتها له مرة أخرى أسوأ بكثير مما كانت تتصور، الشوق الذي شعرت به نحوه عندما رأته منحنياً على عمله، كان مخيفاً بعنفه.

والآن، هذا الصمت الفظيع! توقعت أن يكون غاضباً منها، تصورت أنه سيناقشها مناقشة يمكنها أن تواجهها. ولكن هذا الصمت يقتلها. بللت شفتيها بلسانها: «جئت لأعتذر شخصياً».

قالت هذا وهي تتقدم خطوة بتردد. أضافت تقول: «أنا هنا لأبقى إذا شئت أن تبقيني عندك. إذا استطعت أن تصفح عني».

بقي صامتاً لكنه ازداد توتراً فتنهدت وهي تدعو الله بحرارة. كيف يمكنها أن تستعيد ثقة مات؟ ألن يمنحها فرصة لتشرح له الأمر؟

وقعت عيناها على اللوحة التي كان يرسمها.

ـ هل ترسم لوحة جديدة؟

جعله سؤالها يستدير ليواجهها، وتقدم إلى الأمام وكأنه يريد أن يختطف الصورة قبل أن تراها قائلاً: «ما زالت في البداية».

ـ هل هي مشهد آخر من البراري؟ لقد أعجب ابي جداً بلوحتك وهو يراك صاحب موهبة رائعة، ويريد أن يكون وكيلك ويصنع لك ثروة.

ـ لا تقولي شيئاً كهذا.

www.elromancia.com

اقتربت من الصورة فرأت مشحات الألوان الانفعالية في آخر عمل له.

ـ آه، يا إلهي يا مات.

لقد جعلتها جرأة الصورة تلهث. هذا الرسم تجريدي، يظهر الجوهر من دون الظاهر، وأكثر عنفاً من أسلوبه العادي، لكنه بالغ الذكاء. ولكن فكرة الموضوع هي التي أذهلتها وجعلت قلبها يدق.

سمعت ضحكته الخافتة الحزينة بجانبها، ثم أشار إلى الصورة.

ـ هذا نوع جديد من العلاج بالنفور والكراهية. إنني أرسمك بطريقة بعيدة عن أسلوبي المألوف.

سألته هامسة: «وهل هي فعالة؟».

فأجاب بابتسامة حزينة: «كالسحر».

ـ كالسحر.

ونظر إلى الصورة بعينين ضيقتين ثم إلى ساعة الحائط.

ـ سأنسى حبك تماماً حوالى الساعة الخامسة عصراً.

بدا صوته حازماً مراً، ولكن عندما نظر إليها ومضت عيناه بمشاعر واضحة، فكادت تبكي: «أتريد أن تخرجني من قلبك، يا مات؟».

وقفت أمامه بشجاعة وهي تحدق في وجهه.

حدق إليها بدوره. فشعر بألم حاد، كالألم الذي شعر به وهو يشاهد شجاعتها ورغبتها في المجازفة. لقد جرب مات ذلك، ويا ليته لم يفعل! وتابع مكشراً:

ـ عقلي يريدك أن تخرجي من قلبي.

ومد يده يتناول قميصه من على المقعد.

أخذت تشارلي تتأمل حركة عضلات ذراعيه وصدره وهو يلبس قميصه. وأدركت من الطريقة التي لمعت فيها عينا مات أنه لاحظ اهتمامها. ورغم غضبه، ومضت المشاعر في نظرته فاستقامت في وقفتها وتنفست بعمق. ثم رفعت رأسها وقالت تتحداه: «أنت مدين لي على الأقل، بفرصة أشرح فيها سبب وجودي هنا. عندما ذهبت لتزورني، قلت

أنت كل ما عليك أن تقوله. ولهذا عليك أن تصغي إلي وأنا اتكلم».

جرّ المقعد عابساً ثم دعاها للجلوس عليه.

جلست قبل أن تنهار ساقاها بينما سحب هو مقعداً آخر جلس عليه، شابكاً ذراعيه على صدره ونظر إليها بثبات.

ـ قلت إنك جئت لتبقي هنا. لكن هذا لن ينجح.

ـ ما الذي يجعلك متأكداً من ذلك؟

ـ لأنني لا أستطيع أن أغيّر نفسي، وأنت لا تستطيعين تغيير نفسك. لدينا مسؤوليات نحو أسرتينا ونحو الحياة التي نشأنا فيها.

جلست متصلبة على المقعد وقد شدت قبضتها بقلق: «ماذا عن حل وسط؟ من وجهه نظري، العيش في البراري يبدو تسوية كاملة».

ـ لا أستطيع أن أتصور ما تهدفين إليه.

كان وجهه مظلماً ونظرت هي إلى الاحمرار الزاحف إلى عنقه.

ـ عندما جئت إلى إنكلترا، قلت إنك تحب تشارلي بيل.

همست بذلك وقلبها يخفق في صدرها بعنف، كزورق هش في عاصفة بحرية.

ـ نعم لقد قلت ذلك.

ـ إذن، يمكنك حتماً أن تفكر بطرق جديدة لحلّ هذه المشكلة.

ومالت إلى الأمام، واهتز صوتها وهي تسأله: «ألا يمكنك أيضاً أن تحب اللايدي شارلوت؟».

فتنهد: «كيف يمكننا التغلب على الاختلافات الهائلة في نمط حياتنا؟ أنا صاحب مزرعة في البراري، ولا يمكنني أبداً أن أكون شخصاً مثل جيريمي».

فكادت تنفجر ضاحكة.

ـ آه، يا مات! الحمد لله. فأنا لا أريد أي شخص مثل جيريمي. أنا أريدك أنت. أنا أريد العيش هنا.

وعندما لم تظفر منه بابتسامة استجابة، أخذت نفساً مرتجفاً، ثم

www.elromancia.com

منحته أشجع ابتساماتها.

ها قد حان وقت المواجهة.

ـ أريد منك كلمة واحدة فقط وينتهي الأمر بيننا، يا مات... ألا تريدني؟

فقفز واقفاً والغضب يتفجر في صوته وعينيه.

ـ هذا ليس سؤالاً عادلاً. لا يمكنني أن أتزوجك.

وسار نحو الباب، ثم تابع يقول: «أنت تضيعين وقتك سدى، ما كان لنا أن ننجرّ إلى هذا الحديث الذي لا نفع منه. سأستدعي آرش وأخبره أن يؤخر شاحنة البريد لتأخذك».

نظرت إليه تشارلي يخرج من الباب، وقد تملكها الرعب، الرجل الذي تحب يخرج من حياتها للمرة الثانية. هذا مستحيل. وركضت خلفه صارخة: «مات! انتظر. لديّ شيء هام أقوله».

عاد يطل من الباب عابساً. ومن دون أن يتكلم أراح يده على إطار الباب وكأنه عاد فقط ليسمع ما تقول ثم يخرج مرة أخرى.

لم تعرف من أين أتتها الشجاعة، لكنها تقدّمت نحوه: «ماذا لو... ماذا لو عرضت عليك أمراً؟».

فحملق فيها: «عرض؟».

ورغم توتره، شبك ذراعيه على صدره واستند إلى الباب.

ـ لا بأس. كلي آذان صاغية.

ـ الأمر سهل حقاً. ينبغي أن يكون لديك امرأتان.

فقال بضحكة واهنة: «هل أفهم من هذا أننا نتحدث عن شارلي بيل واللايدي شارلوت؟».

ـ نعم. ألا يمكنك أن تفكر بي بصفتي شارلي بيل عندما أكون هنا معك بقية حياتنا؟ ثم ألا يمكنك أن تحاول أن تتحمل اللايدي شارلوت عندما نزور بيتنا في انكلترا؟

سكت عن الضحك، وابتلع ريقه.

ـ ما هذا الذي قلته بشأن (بقية حياتنا؟) هل يمكنك أن تكرري ذلك مرة أخرى؟

فقالت بخجل: «إنه اقتراح فقط».

ليته فقط يسمع كلامها! إنها واثقة من أن شكوكه ستتبدد حينئذ.

ـ ظننت أن مات لوكهارت، أسطورة منطقة الأدغال، يعرف كيف يميز الصفقة الجيدة حين يراها. وأنا هنا اعرض عليك امرأتين بثمن امرأة واحدة.

أسبل ذراعيه على جنبيه ووقف ينظر إليها.

ـ أنني أفكر في ذلك.

ـ لا تقلق من ناحية اللايدي شارلوت، إذا كنت لا تريدها، لأن شارلي بيل هي أنا الحقيقية. كما أن عودتي إليك هي بمباركة أبوي.

تقدّمت منه خطوة: «ما رأيك يا مات؟».

ـ أنا أفكر. أنا في الواقع أفكر في أنني قد أتمكن من مواجهة امرأتين في حياتي.

ـ طبعاً يمكنك ذلك.

وهذه المرة أشرق وجهه بابتسامة عريضة، ثم قال: «أنا أفكر في أنني أحببت، نوعاً ما، النظر إلى مظهر اللايدي شارلوت. كانت تمثل طبقة معينة كما أتذكر».

وتقدم خطوتين أخريين.

ـ ويبدو أنني أتذكر فمها الممتلىء، وعينيها...

ونظر ملياً في عينيها ثم قال: «عيناها كانتا تفصحان عن نار داخلية...».

كانت شارلي تعرف كل شيء عن تلك النار الداخلية التي ذكرها.

ـ أظن بإمكاني التفكير في هذا بحماسة.

وإذ لم تستطع الانتظار أكثر، هتفت قائلة:

ـ آه، يا مات..

www.elromancia.com

أياً يكن ما أرادت قوله، فقد قاطعته دموع السعادة التي انهمرت من عينيها همس مات: «أكاد لا أصدق».

- كفى رغبة في اللايدي شارلوت. لقد سبق وأخبرتك بأن شارلي هي حقيقتي.

- نعم. وأنا سعيد جداً للاستقرار على شارلي.

وراح يتأملها بكل الحب الذي يكنه لها.

أما هي فهمست: «مات، هل صفحت عني؟».

ابتسم لها قائلاً: «حالما رفعت بصري ورأيتك، ظننتك وهماً وأنني فقدت عقلي. ومنذ اللحظة التي تحدثت فيها عن (بقية حياتنا)، نسيت لماذا فكرت في أن عليك أن ترحلي».

- إذن، ستدعني أبقى؟

- بل يجب أن تبقي. عديني بألاّ تهربي مجدداً.

- أعدك من كل قلبي.

- أحبك، يا شارلي بيل. أحب أن أراك وأشعر بك.

وراح ينظر في أعماق عينيها.

- لكنني أظن أنني أحب عزيمتك أكثر. وأشعر بأنني سأظل شاكراً لذلك بقية حياتي.

ابتسمت له برقة، وقالت: «أنا غارقة في حبك، يا مات لو كهارت».

- هل لديك خطة لجعل فكرتك تلك تتحقق؟ مثل... عرس أو ما شابه؟

رفعت حاجبيها تستفزه: «لا يمكن للفتاة أن تقوم بكل شيء. أنا أعلم أنك رجل قليل الكلام، لكنني أترك لك هذا الاقتراح».

- أرى في عرض الزواج على (لايدي) شيئاً من التكلف.

تنهدت شارلي عابثة: «لايدي شارلوت في انكلترا، أيها الغبي. جرّب أن تعرض الزواج على شارلي بيل ثم انظر ما سيحدث».

- شارلي؟

وارتجفت شفتاها: «نعم».

وكان صوتها منخفضاً للغاية.

- هل تحبين أن تكوني زوجة لصاحب مزرعة مواشي في البراري؟

- آه، نعم.

وكان صوتها أشد عزماً، فضحك بسعادة: «شكراً».

- أشكرك على أفضل عرض حصلت عليه.

- إذن فهو عرس في البراري؟

- نعم ولِمَ لا؟

فضحك بصوت خافت: «كم أودّ أن أرى نورتون عند موقد الشواء يشرب الشاي بلبن الماعز».

- وأرش في القبعة العالية والبذلة الرسمية في انكلترا!

- هذا غير مهم ما دمت أنت هناك.

تنهدت بارتياح، وقد غمرتها سعادة لم تعرف لها مثيلاً من قبل.

* * *

www.elromancia.com